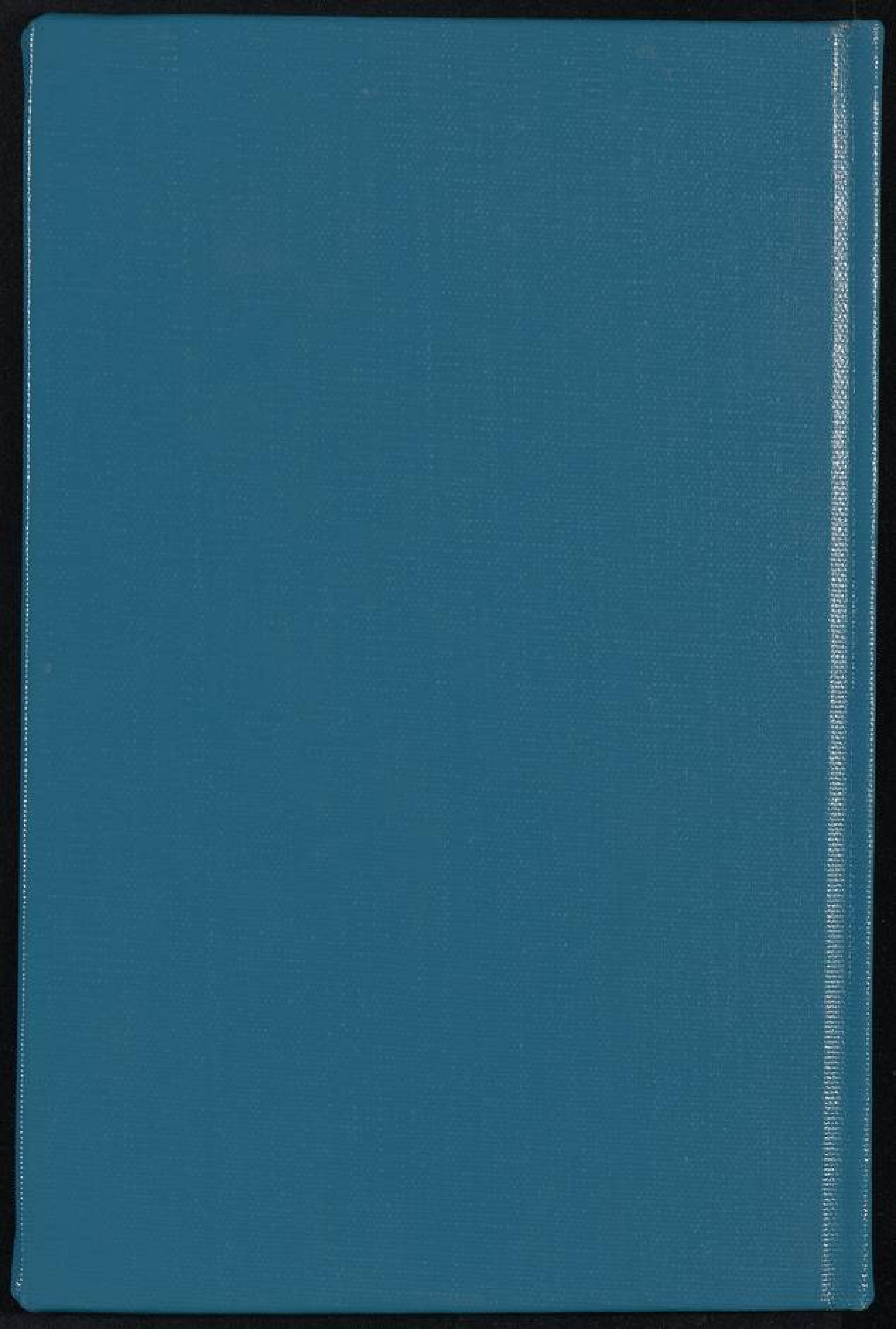
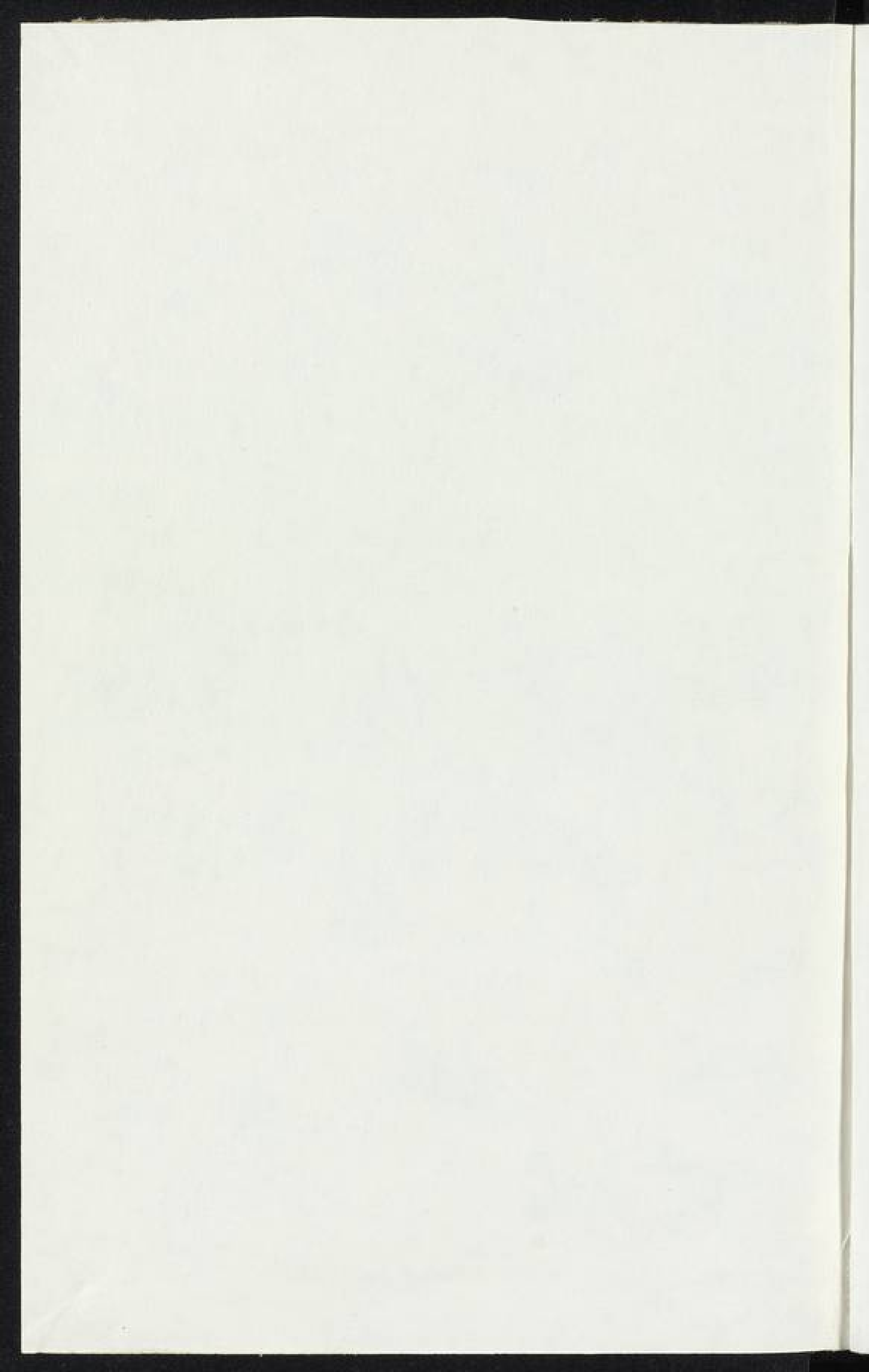



BOBST LIBRARY
3 1142 01725 0401











الياس ربابي



بيروت ١٩٥١

« من « سليمان » الى
« رينان » استظلت الحكمة البشرية
فيء الارز . وللبنانيين الذين انقذوا
حريتهم وعرقهم ودينهم بصمودهم
— يوم كان من هم اغنى واقوى
منهم يحنون الجباه استسلاماً —
للبنانيين هؤلاء « شجرة عيلة »
تضاهي اغصانها اغصان الارز
حيوية وروعة وامتداداً » .

[غبريال هانوتو]

الى المغترب المجهول

علّل المعللون بواعث الهجرة اللبنانية فقالوا :

— هو جفاف المرتزق ضمر وشحّ فاهاب بطلاب الخصب والسعة الى النزوح ، سعياً وراء الجنى والبركة .

وقالوا :

— هو حب الاثراء العاجل اذكاه مثل وقدوة مغريان ، نخرج بالقناعة من حدود الى حدود ومن صعيد الى صعيد .

وقالوا :

— هو الظلم قسا وأحرج فابت نفوس العزة والحرية ان تركع او تذل ، فانطلقت الى حيث توسمت الحياة ولا قيود لها سوى قيود الحرية ولا سدود غير سدود الحق والقانون .

وعندي ان مصدر تلك البواعث ـ على تعددها وتنوعها ـ ورأس تلك المرامي ـ على تشابكها وتباعدها ـ انما هما كامنان في طبيعة وحي

زماننا ومكاننا ، في صميم تراث انتقل الى الخلف من تركة السلف انتقال اللزوم والاطّراد ، فكان هـذا الطموح اللبناني ، بل هـذا الطلب اللبناني الفريد في جبروته ومضائه واستمراره . فاذا هو ـ منذ ضربة المجذاف الفينيقي الاول في صفحة الازرق الرجراج الى آخر نازح برح الدار ـ تاريخ خاص بنا دون سائر تواريخ الشعوب ، وملحمة من ملاحم البطولات تفردنا بها دون سائر الامم .

في العالم بلدان كثيرة ، كبيرة وصغيرة ، جفاها اليسر والرخاء ولم يفكر بنوها تفكير اللبناني ويغتربوا اغترابه . وفي العالم بلدان كثيرة ، كبيرة وصغيرة ، ضامها العسف والاستبداد ولم يفكر بنوها تفكير اللبناني ويغتربوا اغترابه .

وما وضع لبنان ـ نصف بنيه فوق هذه الارض وتحت هذه السماء ونصفهم الثاني منتثر في اشعاع ما خلت منه ارض وما حجبت عنه سماء ـ الا وضع نمتاز به ويمتاز بنا ، وقد قامت قواعده على اسس هي من عناوين شخصيتنا وسمات طابعنا .

*

لقد اسعدني الحظ بان ازور دياراً للمغتربين في افريقيا الغربية الفرنسية والبرازيل والاورغواي والارجنتين والمكسيك والولايات المتحدة ، في رحلتي وفدي الكتائب اللبنانية الى المغتربين (ايار ـ ايلول ١٩٤٨ وتشرين الاول ـ كانون الاول ١٩٥٠) فما تمنيت الا ان يسعف الدهر على نقل المقيمين الى تلك الديار ليروا ما رأيت ، ويعجبوا بما اعجبت به ، ويتوثقوا في قيم واقدار لنا ، عبر البحار ، لا تضبطها

المقاييس والموازين .

لقد حمل مغتربونا لبنان في قلوبهم وعيونهم واشعوا بخير رسالته الانسانية السامية في كل ارض نزلوها .

وكانوا من لبنان وللبنان اكثر من روح وقلب وساعد : كانوا الحب يبذل ، والوفاء يبرّ ، والحق يشرق .

فكانوا لبنان .

فاليهم ، بل الى « المغترب المجهول » منهم اقدم هذه الصفحات !

شباط ١٩٥١ الياس ربابي



سوانح وبوارح

وتلفتت عيني ومذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

[الشريف الرضي]

... ها نحن في كبد الفضاء، في عالم قصرت عن مطاولته صغائر البشر وعجز عن بلوغ ذرى الجمال الكلي والخير الاسمى .

وها هي دفقات سخية، نقية، من انوار صباح لبنان واشعة شمسه الصافية تغمرنا غمر السناء والغيبوبة، فتهيجنا العواطف والاحاسيس من كل مطلع ووحي، وتحفّ بنا اخيلة الاحلام والاوهام حفّ الجذب والدفع، حيناً برفق ولين وحيناً بعصف وشدة .

وينحط الطرف الى ما دون فتتجلى امامه الوان الشواطىء والهضاب اللبنانية كاروع ما يمكن ان تكون عليه الوان البهجة والزهو تفاعلاً واشراقاً وانسجاماً .

وتمحي من الذهن خطوط السواد وعوامل الاجفال، فلا يعلق

بالخاطر سوى صورة لبنان المجردة ، تلك التي خلقت رواء ونقاء فعبثت بها شهوات التراب مسخاً وتشويهاً .

وبقدر ما تمضي الطائرة صعداً في سيرها المتوثب بقدر ذلك تبرز صورة لبنان بوجهها المليح وبهائها الخالد : فالاصوات التي تُسمع اصوات خفتت فيها نبرات التشويش والنشاز ، والعيون التي تبصر عيون خبت فيها رهجات الموجدة والغرض ، والنيات التي تنبض نيات اقفرت ساحها من كدر الأثرة والرياء ، والاحاديث التي تتبادل احاديث شفّت ورقّت فما نمّت عن سوى الحب ، وما امتزجت بغير الرغبة في الخير ، وما دارت في غير حلقات التعبد للحق . واذا لبنان القيم الباقية ، لبنان الآلهة والانبياء والشعراء ، لبنان الجمال من ازل الى ابد هو كل ما تحمل النفس ويحتل منازع الشعور .

وساعة غابت ملامح الوطن الحبيب عند اقصى الافق الغارق في غلالة من اغبرار السراب والضباب لم يكن في عيون اللبنانيين من رفاق السفر وعلى السنتهم الا تمتمة الحنين تردد مع الشريف الرضي :

وتلفتت عيني ومذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

وفي الجو ، في هذه الدنيا الجديدة يغزوها الانسان في طلابه الاقصى ، لا بد لانفعالات الحذر والقلق من ان تجد مستقراً لها ، وان تحت مظاهر الاطمئنان والتسليم والاستسلام . وبالرغم من كل ما تسعى مقوّمات تيسير الراحة وضمان الارتياح الى ان توحي به وتوهم ، فلا بد لاحساس خفي ، دائم الايجاس خيفة من ان يختلج ويساور ويلابس .

وفي الجو سرعان ما يتعارف البشر ويتقاربون ويتآلفون ، كأنهم

ربيبو قربى وصداقات ومودات لا تحسب أعمارها بالدقائق والساعات، وشرعتهم «الانسان اخو الانسان» حقاً وصدقاً، لا خداعاً ونفاقاً .

وطفقت الطائرة تعبر المتوسط. فمرت محاذية جزيرة « كريت » وقد وضحت معالمها وضوح شمس لبنان في عنفوان تموز. فذكرنا، اول ما ذكرنا، عن ارض اليونان الخصبة بامجاد الحرف والسيف، احدى معجزات الحرب الكونية الثانية ، يوم احتل جنود « هتلر » الجزيرة هابطين اليها من عل، فكان لفتحهم ذاك هزّة اكبار واعجاب خشع لها الموالون والمناهضون على السواء .

وحلقت الطائرة فوق جزيرة ثانية هي « كورسيكا » ، فاذا ظل نسرها ، ظل نابوليون ، يحجب عن الابصار والبصائر كل شيء ما عدا ذكرياته المتجددة بتجدد الزمن والتاريخ. ولم تلبث ان اندفعت صعوداً فاذا هي فوق بحار من السحب الرمادية الضاربة الى البياض وقد انتشرت بُسطاً لا يدرك الطرف آخرها، في تراكم وتقاطع ، ونتوء وانخفاض ، وتلازّ وتراخٍ ، صبّ في هندستها حيوية السحر واغراؤه.

* * *

بين رفاق السفر طفلان اخوان من «عكار» . كبيرهما في العاشرة من عمره وصغيرهما دون الثامنة . كانا قاصدين الى « سيراليون » من اعمال افريقيا الغربية الانكليزية للالتحاق بوالدهما المغترب . كانا مسافرين وحدهما ولا حنان ام يخفف من ثقل الغربة القاسية، ولا عضد كبير يقيهما عثار الطريق .

وكان اجمل ما في الطفلين جلداً ورباطة جأش وصبراً على غصص

المكاره اظهرتهما بمظهر الرجولة قبل الاوان . رافقانا ورافقناهما حتى باريس ، فلم يشكوا فراقاً، ولم يشجهما مصير ،وما سطعت في اعينهما دمعة من الدموع المشروعة في مثل سنهما ووضعهما . لقد كانا مثالاً للطموح اللبناني في نزوعه الى ارتياد المجهول ، وفي لامبالاته المحاذير والتقادير ، وفي كتابته سفراً للاغتراب لا يعدله اي سفر آخر ، لا في شرق وغرب ، ولا في شمال وجنوب !



انها باريس !..

ان عبدة الشمس عند شروقها اوفر عددا منهم عند غروبها
[بومبه لسيلا]

باريس !

الحلم المجنح في غير خاطر وخيال ،

والامنية المستيقظة في غير شوق وتوق ،

واللوحة الزاهية بالف عرس من اعراس الالوان والالحان ،

باريس !

العاصمة التي ليست كسائر العواصم ،

والمغنى المؤنس يشعر العالم كله اجمع بانجذاب خاص اليه والى روحه وموحياته ومباهجه ،

والهيكل الرائع تستلم حجارته، صباح مساء ، طغمات في طغمات من الكهان والعباد .

باريس !

باريس الحرف والازميل والريشة والنغم والمسرح تملأ الدنيا حكمة وادباً وعلماً وفناً ،

باريس المتاحف والمكتبات والجامعات والمدارس يحجّ اليها الفكر من كل فج وصوب فيجثو في محاريبها امتثالاً واجلالاً ،

باريس ، وارثة اثينا وروما حضارة وثقافة واشعاعاً ،

باريس شارلمان وريشليو ولويس الرابع عشر ونابليون وبوانكاريه ،

باريس الثورة الكبرى وحقوق الانسان ،

باريس الحدائق والساحات ومداميك الروعة والسؤدد ينخطف فيها النظر والعقل من ارض الى سماء ،

باريس الفتنة والاغراء والجمال والدلال ،

باريس الليل والنهار يتنافسان في ايّهما ييسر للانسان القسط الاوفر والقسمة الكبرى من متع الوجود ولذاذاته ،

باريس النور والعطر والمرأة تخلع على الحياة المعنى المستطاب لا تلقاه الحياة في غير باريس ...

هذه المحطة الجبارة الايحاء والالهام في سير الانسانية لم تفقد شيئاً من طابعها وسماتها . وها هي في هذه الصبيحة الضاحكة من شهر الورود كابهى ما تكون عليه الحسناء ليلة زفّتها .

في العالم عواصم لا تجاريها باريس في عدد السكان واتساع الشقة . وفي العالم حواضر قد تكون تقدمت باريس اشواطاً على طريق الضخامة

والمهابة. بيد ان لباريس جاذبية من طبعها وصنعها هي خاصة بها دون سائر مدن العالم وعواصمه.

وهذه الجاذبية تغوي الرواد من سائر الفئات والاجناس، فتستأثر بهم وبمشاعرهم استئثار الواثق بقوة رأس ماله وصحة دعوته. فلا يكادون يحلّون في عاصمة الحياة لساعات او ايام حتى تستهويهم الاقامة فيها طول العمر، ولا يكادون يبتعدون عنها حتى يعاودهم الحنين اليها: ان لها من فيض الحيوية ومرح التيه وعبقرية الخلق ما يقربها من اشد القلوب نفوراً ويحبّبها الى اشد النفوس انطواء على السواد.

* * *

وراء البسمة الطلقة تطالعك بها باريس - ومن ورائها فرنسا باسرها - نفرة من ذكرى وارتياب من تعلّة. فاثقال الحرب الاخيرة - ولا سيما المعنوية منها - ما زالت جاثمة فوق الصدور وفي اعماق الضمائر.

وربما كانت ظاهرة السويداء والاستخفاف بالواقع والكفر بالرجاء من ابرز الادلة على جراح لم تلتئم، ودموع لم تبرد، وريبة ما انفكت تخضخض الكيان.

فالفرنسي المؤمن بانه قد خدع وغُرّر به في الحرب الماضية، الفرنسي المسوق الى دفع جزية النار دفع السهولة والتطويح ... هذا الفرنسي يأبى ان يقر باستحقاقه وصمة الهزيمة، ويرفض ان يصفح عمن هم في حسابه وحسبانه مصدر الكارثة وعلة الخزي والهوان.

لقد قيل له ان بين يديه من اسباب القوة وامكانات الغلبة ما يجيز له الركون الى المصير. فصدق ما سمع واخذ بما قيل. وما كادت

الخيبة الفاجعة تطبق عليه ، وما كاد بطلان الدجل والتغرير يتضح له حتى الفى نفسه بين نارين : نار الانكسار بكل ما فيه من عنت وايلام وارهاق ، ونار الالحاد السياسي ازاء كل ما يقال وكل من يقول .

ومن الصعب ان يتحول هذا الفرنسي عن معتقده ذاك قبل ان يطرد النور الظلام ، وتحل الحقيقة محل الوهم ، ويصبح صدق الصراحة والمصارحة الرابطة الوحيدة بين من فرض فيه ان يأمر ومن فرض فيه ان يأتمر .

والحاجة كل الحاجة في فرنسا اليوم الى واحد : الى قيادة ثابتة القدم ، طويلة النفَس ، ترسخ الثقة وتنشر اليقين . وفي اعتقاد السواد الاعظم من الفرنسيين ان بلوغ الاستقرار لا يتيسر قبل ان يسيطر احد المبادىء السياسية المتنازعة على سواه سيطرة التفوق واملاء الارادة .

* * *

يوم صمتت شقشقات المدفع ، في اعقاب الحرب الاخيرة ، تحوّلت انظار السياسة تحولاً كبيراً عن باريس ولندن الى واشنطن وموسكو . وخيل الى البعض ان باريس قد تنزّلت عن حقها في دور طالما لعبته ، عبر الحقب والاجيال ، وهي في مقدمة المسرح وتحت المتألق من انواره . وشقّ على الفرنسيين ان تفقد عاصمتهم ما يعدّ فقدانه حرماناً وافتئاتاً وتهديداً للمآل . فاخذوا يتحينون الفرص للاستعاضة مما فات والتكفير عما فرط .

وفي صميم الامة الفرنسية زخم مكنون ومؤهلات وضمانات تؤذن بان الكبوة العارضة لا تعني السقوط المطلق ، وبان تأخر بزوغ

الفجر غير استطالة الليل وتمادي العتمة الى حيث لا فجر يرتقب ولا صباح يؤمل .

وفرنسا ، بين البلدان التي طحنتها الحرب ، اول بلد اوربي نفض عنه رماد الخراب ، ودفع كوابيس المحنة ، ونسي ، او تناسى ، عهد العرق والدمع والدم ...

* * *

هذه انطباعات يتأثر بها زائر باريس للوهلة الاولى من تقلّبه فيها اليوم : انه امام ارادة تأبى ان ترفع الراية البيضاء تخلّياً ، وازاء رأس مال من القوى الروحية والمادية يوطد مركز باريس في حرصها على الاحتفاظ بالتاج والصولجان .

ان مدينة النور والفتنة والعظمة ما برحت مدينة النور والفتنة والعظمة . وقد تتعثر في ميادين السياسة او الاقتصاد او الرخاء المادي، غير انها كانت وما زالت مدينة العالم الاولى والوحيدة في فهم الحياة واكتناهها والاغراء على العبّ من معانيها واطايبها . انها المدينة المثلى في العالم يدخلها المرء فيثلج صدره لشعوره بانه حيث يشتهي ان يكون وعلى ما يشتهي ان يكون ، ويخرج منها فتنقبض نفسه لاحساسه ان بعضاً من نفسه قد بقي فيها ...

انها باريس !...

على عتبة القارة السوداء

اعانقك ، يا ارض افريقيا [قيصر روما]

كان الاصيل في باريس ، ذلك النهار ، من الاصائل الحائرة بين الافلات من قبضة ربيع طري النسمة ، سخي العبق ، والطفرة الى وطأة صيف هلّت تباشيره على وهج ورهج .

وكانت الساعة قد جاوزت الثالثة بعد الظهر عندما قامت بنا الطائرة من مطار « اورلي » ووجهتها « دكار » .

وامتدت الابصار من الآفاق الرحبة الى الارض ، فاذا المدن والقرى والحقول والغابات والمروج لوحات من الاضواء والظلال قلما تمكنت ريشة رسام من محاكاتها او تقليدها .

وشدّت الطائرة مرتفعة الى قمة الخمسة آلاف والخمسمائة من الامتار فاشتد ثقل الهواء ضغطاً وبرودة . وحثّت السير الى ان بات معدل سرعتها الاربعمائة والخمسين كيلومتراً في الساعة الواحدة ،

فشعر الركاب بما يشعر به الانسان في مثل تلك الدرجات من السرعة والارتفاع : لقد تباطأ الانقباض والاضطراب في مبارحتها الصدور ..

وتعاقبت المناظر على دهش وتنوع : هنا بحار من الغيوم يزحم بعضها البعض الآخر في مثل تدافع القتال وايهام الاشباح والرؤى ، وهناك جبال برزت خفايا قممها كما لو كانت معروضة على كف نقاد ، فاذا البحيرات والثلوج والاحراج من آي صنع الخالق وروائع الابداع. وهنالك اطياف واشعة من كل قياس ولون تتبدل وتتحول فتملأ القلب دفأ وتغب منها العين رجاء .

... وينقل احد معاوني ربان الطائرة معلومات طريفة الى المسافرين : « جاوزنا الحدود الفرنسية ... ها اننا نتخطى جبال « البيرينه » ـ او جبال « البرانس » على حد تعبير الغلاة من دعاة الضاد ومحنطيها ـ ... في هذه الدقائق تجتاز الطائرة سماء « مدريد »... قريباً نحط في « كازابلانكا » ، او الدار البيضاء ... » .

* * *

وعند الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والاربعين (توقيت باريس) حططنا في مطار الدار البيضاء .

والدار البيضاء من المسميات القلائل التي تصدق فيها اسماؤها . في تلك الساعة التي يكابر النهار محاولاً الا يتراجع امام كر الليل والتي يتوانى فيها الغسق في تمويه المناظر تمويهاً مطبقاً تجلت « كازابلانكا » وجهاً ابيض القسمات والتقاطيع .

ولدى الاتصال الاول بمن في المطار صدق الخبر عن حقيقة

المدينة التي تعرض فيها نموذجات مختلف الشعوب والسلالات : فمن وجه افريقي الى وجه اسيوي فالى آخر اوربي فالى رابع اميركي ... ومن لسان ينطق بعربية مثقلة باشتات اللغات الاعجمية الى العديد من السنة الشرق والغرب ... ومن زيّ وطني فيه الكثير من الاقتباس والاحتذاء الى ازياء كثير مـن البلدان التي جمعتها الاهداف والمصالح والمطامح على صعيد تلك العقدة الهامة من عقد الارتباط العالمي .

هذا في الظاهر ، اما في داخل الدار البيضاء ، فالمدينة الافريقية بمثابة « استانبول » عثمانية جديدة بكل من وما عرفت استانبول تلك من قوى خفية ، رهيبة ، تتصارع وتتآمر في شرّة كيد واصرار عزم.

* * *

كان مـن المحدد ان نغادر الدار البيضاء الساعـة التاسعة ليلاً (توقيت افريقيا الغربية الفرنسية) وبعد ان كان الركاب قـد اتخذوا اماكنهم في الطائرة ، في الوقت المعين ، أوعز اليهم بالنزول لكون احد محركاتها في حاجه ماسة الى الاصلاح .

وانقضت ست ساعات ونحن في انتظار استئناف السفر . وبالرغم من هذا التأخر في بيئة من حرمان اسباب الراحة فقد قدر المسافرون عناية ربان الطائرة ولسان حالهم يقول : « خير لنا ان نصل الى المحجة متأخرين من ان نصل الى عكسها مسرعين » ...

وعند الساعة الرابعة صباحاً ودعنا الدار البيضاء الى دكار . واشرقت الشمس فزهت تحت خيوطها الوهاجة صفحة من الماء بعيدة قرار الافق وصفحة من الرمال الذهبية تحاذيها ولا تقل عنها غموضاً

وامتداداً . فالى اليمين المحيط الاطلسي بلججه وزبده وخفقانه ، والى اليسار صحراء افريقيا الكبرى برمالها وحلمها وصمتها . ويستمر المشهد على وتيرة واحدة ، ولا تجدد ولا تغير .

* * *

... يوم غزا قيصر روما المغرب الافريقي زلّت به القدم عند انتقاله من الزورق الى اليابسة . وعدّ اعوانه ومرافقوه « الحادث » مدعاة تشاؤم وتطيّر . واستشف قيصر ما في سرائرهم فقال وهو ينهض من عثرته : « اعانقك ، يا ارض افريقيا » ! ... فانتفى العبوس وحل الرضى . وساعة لاحت لنا من الجو « دكار » ، عتبة القارة السوداء ، ذكرنا ـ وليس بدون غصة حيناً واعتداد احياناً ـ اخوة لنا ميامين عثروا وزلت بهم الاقدام في المجاهل الافريقية . غير انهم ما تطيروا وما تشاءموا ، بل رددوا ولا يزالون يرددون عبارة القيصر : « ارض افريقيا ، اننا نعانقك » .

ولئن تكن « ديدون » بنت « صورنا » القديمة ، قد بنت للبنان « قرطجنة » العظيمة فلبنانيو الجيل بنوا ويبنون للبنان في افريقيا من مكرمات الرجولة والبطولة ، ما قد يوازي عمل « ديدون » ـ من بعض نواحيه ـ فتحاً وتحقيقاً .

ان تاريخنا يعيد نفسه .

بناء الضحايا

حيثما قذفت الاقدار باللبناني يجيء واقفاً على رجليه ، فلاخوف على اللبنانيين من الكثرة وانما الخوف على الكثرة من اللبنانيين .

[امين الريحاني]

« للورد كرومر » كلمة مأثوره عن دور اللبنانيين في خدمة مصر وبعث نهضتها مؤداها : « ان مصر مدينة بالشيء الكثير لانكلترا ، ولكنها مدينة باكثر من ذلك للبنانيين وقد كانوا من مقوّمات تقدمها وازدهارها » .

وما اصدق ما تنطبق كلمة « كرومر » في مصر على الواقع اللبناني في افريقيا الغربية الفرنسية . لقد احتلت فرنسا افريقيا وحلت فيها ، بيد ان للبنانيين في النهوض بها يداً ، بل ايادي ، ملموسة الفعل والنتيجة .

ففي تلك المنطقة البكر من العالم ، في ذلك المجهل الغامض من

الارض ، في هاتيك القارة الضائعة في جحيم من الخطر والحذر حقق العقل اللبناني واليد اللبنانية ما اعتادا ان يحققاه في كل موطن ينزله لبنان .

في دكار مثل ما في « سان لوي » و « خمبول » و « كولك » و « باماكو » و « سيغيري » و « كوناكري » وغيرها من بقاع المهجر الافريقي الممتد من « السنغال » شمالاً الى الممتلكات البلجيكية جنوباً والمتوغل عمقاً من السودان حتى « التشاد » ... في كل من هذه البقاع ساهم اللبناني في التعمير وانشاء المتاجر والمزارع ، فخلق حياة جديدة بعزم لا يعرف التراجع وقوة حقر لديها الضعف والتردد، فاتسقت مداميك الحجريين خيام القش واكواخ الصلصال ، وابتسمت التربة الجافة عن زراعة للخضار والفاكهة لبنانية مئة في المئة ، ولان الاتصال بين شطر من العالم معروف وشطر ثوى بعيداً في ظلمتين : ظلمة المكان وظلمة الخمول .

للمغترب اللبناني - بوجه عام - ميزات يعرف بها وتعرف به واعمال هي الاقدام والجرأة والتفوق في اصدق ما تيها . الا ان للمغترب اللبناني في افريقيا خواص ترتقي به الى ما فوق المستوى المألوف : فهذا اللبناني الذي كتب له ان يغالب عناصر الطبيعة بكل ما فيها من دواه واهوال ، هذا اللبناني الضارب في رحاب سماؤها نحاس محمى وارضها رصاص ذائب وهواؤها ضيق وداء ، هذا اللبناني الذي كتب عليه ان يفرض احترام نفسه على الجهل والعداء والاعتداء بالثقة بالنفس والاعتماد على العصامية ، هذا اللبناني الذي اقدم وحده

حيث احجم الآخرون ... هذا اللبناني خطّ في ملحمة الاغتراب سفراً من عناوينه البأس والانتصار !

* * *

لنا في افريقيا الغربية الفرنسية نزالة يناهز عدد افرادها الخمسة عشر الف نسمة منها نحو الالفين في دكار. اما البقية الباقية فموزعة هنا وهناك وهنالك .

وتاريخ الهجرة اللبنانية الى افريقيا الغربية يعود الى حدود سنة ١٨٨٠ على وجه التقريب . فيومذاك نزل مغترب لبناني من « بيت شباب » مدينة « كوناكري » اضطراراً ، وقد كان في عداد ركاب باخرة شاخصة الى افريقيا الجنوبية والهند . ولما وجد ان مجال العمل متسع في تلك البلاد صمم على البقاء فيها . وكان نجاحه سبباً كافياً لان يلحق به كثيرون من ابناء « بيت شباب » خاصة فابناء « المتن » عامة .

ولم تمر بضع سنوات على نزول هذا الرائد الاول ارض افريقيا حتى حل في مرفأ دكار مغترب آخر من ابناء الجنوب كان ميمماً الارجنتين ، فاهاب يسره بكثيرين من ابناء عشيرته ومنطقته الى النسج على منواله .

غير ان ازدياد الهجرة الى افريقيا لم يخط خطواته الواسعة الا لنحو خمسين سنة خلت . وكان انغلاق ابواب المهاجر الاميركية بوجه اللبنانيين حافزاً قوياً حوّلهم الى الديارا لافريقية خصوصاً ما بين العامين ١٩٢٤ و١٩٣٠ ، فتوافدت جماعاتهم بوفرة وتواتر . ولولا قيود

وسدود فرضتها سلطات البلاد لكانت الخمسة عشر الفاً تضاعفت وبلغت عشرات الالوف .

واهم المجالات التي تتوزع نشاط النزالات اللبنانية في افريقيا تكاد تقصر على التجارة والتسليف الزراعي . ولا نغالي اذا قلنا ان هذه النزالات صاحبة فضل كبير في الكشف عن ثروة البلاد الطبيعية والتوجيه الى استثمارها . ولولا اللبنانيون لظل جانب كبير من تلك الموارد والمصادر نسياً منسياً ، لا يأبه له آبه ولا يحفل به حافل .

وعلى مثال اقامة المستعمرات الفينيقية قديماً انشأ مغتربونا في افريقيا دساكر وقرى تحمل اليوم اسماء مدن ودساكر وقرى لبنانية كبيت شباب وقب الياس وبيروت وسواها وسواها ...

وقد اجتازوا المرحلة البدائية الصعبة ، مرحلة التأسيس والتركيز ، فخرج الناجحون بينهم من طور الاستشهاد في الكدح الى طور تنظيم حياتهم على ما يحتاج اليه الحرص على العافية والتطلع الى الاستمتاع . وفي دكار وغيرها اليوم عدد كبير من العيال اللبنانية الكريمة تعيش عيشة ارقى البيوت في ارقى البلدان المتمدنة .

ويدرك المغترب اللبناني في افريقيا انه ليس هناك كما هو اخوه المغترب في البرازيل او الولايات المتحدة مثلاً . انه في وضع يختلف عن اوضاع انداده الآخرين . انه موقن ان اعماله ـ ايا كان نجحها وغنمها ـ لا تستطيع ان تسمّره مؤبداً في ارض لا يراها صالحة للتوطن النهائي . ومن هنا كان منشأ تفكيره في ان يعود ـ أطال المهجر ام قصر ـ الى الوطن الاول ، في اول ظرف مؤات ، واول فرصة

يصحّ انتهازها .

لقد اتى لبنان في القارة السوداء كثيراً من الاعمال الخارقة . ولكن التضحيات التي قدمها قرابين زكية على مذبح النجاح كانت اغلى التضحيات : لقد قدم عافية وشباباً وارواحاً لا تذكر الهجرة اللبنانية الى افريقيا حتى تكون تلك الضحايا اول من يذكر بالقدر والتعظيم .

فاليها تحية من لبنان ، ولثراها نفحة من اريج زهوره !



بلاد الربيع الدائم

الآن اصبحت أقدر عيني حق قدرهما

[الكردينال سيرنجار]

من « دكار » الى « ريو دي جانيرو » مرحلة تجتازها الطائرة في ست عشرة ساعة منها ساعة توقف واحدة في مطار « ريسيف » .

كان علينا ان نودع القارة الافريقية في الساعة الاولى من يوم ٢٤ نوّار . بيد ان معاكسات طارئة حالت دون قيام الطائرة قبل منتصف الساعة السابعة من صباح ذلك النهار .

واندفعت الطائرة جنوباً تطوي المحيط الاطلسي من جانب الى جانب .

وتعاقبت المشاهد على نسق واحد : فهنا فضاء تعبث به شمس الجنوب وخط الاستواء عبث القسوة والتسلّط ، وهناك الاوقيانوس وقد بدا من الاعالي كأنه ذوب من الفضة يشدّه التجمد فلا رجرجة

ولا اصطفاق ، وهنالك عند اقصى الافق ضباب كدر اللون يحجب كل ما وراءه .

وتنتصف الساعة الواحدة ظهراً فتدخل الطائرة في ركام من الغيوم الحالكة ، وتشخص الابصار من الكوى المستديرة شخوص الدهش المتسائل ، فيعلن احد الربابنة . « اننا نمر ، في هذه الدقائق ، بخط الاستواء » !

وتشاء الصدف ان يكون في عداد المسافرين الطيارة الفرنسية المعروفة « ماريز باستيه » ، وهي اول من عبر الاطلسي الجنوبي جواً عام ١٩٣٦ على طائرة ذات محرك واحد ، فذهب لعملها دويّ عميق في عالم الفتوحات والبطولات .

وجرياً على تقليد متّبع عهد الربان الى السيدة « باستيه » في تعميد الركاب الذين يقطعون ، لاول مرة ، خط الاستواء . فاحتفل بمراسم هذا الضرب من المعمودية على طريقة خاصة : لقد اخذت الطيارة تسكب قليلا من « الشمبانيا » على رؤوس من قضى التقليد بتعميدهم ، ثم سلم كل منهم براءة ناطقة بواقع الحال . وفرغ من طقوس المعمودية تلك في وسط من المرح وتبادل النكات والمباسطات.

وفي منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر لاحت شواطىء البرازيل وما عتمت الطائرة ان اخذت تهوّم في فضاء « ريسيف » ، اولى المدن البرازيلية التي تستقبل القادمين بطريق الجو . وبانت المدينة ، اثر غمرة من انهمار الامطار الاستوائية ، كأنها عائمة على عدد من البحيرات والجداول لا يحصى .

وبعد طيران دام تسع ساعات ونصف الساعة حطت الطائرة في مطار « ريسيف » لتتزود وقوداً قبل استئنافها الطيران الى « ريو دي جانيرو » . وكانت الحرارة خانقة ، وكانت الرطوبة تضغط بكل وطأتها فتزيد الصدر ضيقاً والتنفس حرجاً .

وكان سرورنا كبيراً عندما اقبل علينا وفد من الجالية اللبنانية محيّياً ومهنئاً بسلامة الوصول . وكانت اسئلة واجوبة ، فافدنا عن وضع الوطن بقدر ما تمنّت الاسئلة . وعلمنا ان الجالية اللبنانية هناك تعد نحو الالف نسمة ، وان لها من المكانة ما يؤهلها للانتساب الى لبنان انتساب الجدارة والكرامة .

وانطلقت الطائرة من « ريسيف » وقبلتها « ريو دي جانيرو » .

ولم تكن الحالة الجوية مرضية : فالانواء شديدة العصف ، والغيوم كثيفة ، عالية المناكب ، والامطار تصفع مساقطها صفع الغضب والجفاء ، والطائرة تشق لبد السحاب على قلقلة وارتجاج .

وعند منتصف الليل (توقيت دكار) والساعة الثامنة مساء (توقيت البرازيل) شارفنا منطقة مترامية الاطراف تضحك الانوار فيها بكثرة ونقاء . وافاق الركاب من نوم واغفاءة وسكون ، متنادين الى تمتيع الطرف بالمنظر الخلّاب . وسألوا وتساءلوا : « اين نحن » ؟ فاجاب غير مجيب : «هذه هي ريو دي جانيرو» ! واطرق الجميع معجبين امام المشهد الاخّاذ ، فاكد العارفون : « ان سحر الليل في ريو دي جانيرو » يتلاشى استحياء امام سحر العاصمة الفتانة نهاراً » ...

* * *

وقف امير من امراء الكنيسة واديب من كبار الادباء هو « سيريجار » كردينال البورتغال ، على قمة هضبة « الكوركوفادو » المطلة على ريو دي جانيرو ، وسرح النظر في ما حوله من مراقص الوشي والبهاء ، فلم يتمالك عن ان يقول ، وهو في شبه انخطاف : « الآن اصبحت اقدر عينيّ حق قدرهما » !

واياً كانت بلاغة الكلمة على حد اللسان والقلم ، واياً كانت عبقرية الريشة في ايدي ملهميها ، واياً كانت وثبة النغم العلوي في مسارح الموسيقي ، فلست احسب ان هناك وصفاً خليقاً بفتون عاصمة البرازيل كالوصف الجامع المانع الذي اطلقه الكردينال« سيريجار »

قيل في ريو دي جانيرو خاصة والبرازيل عامة انهما موطن الربيع الدائم ،

وقيل في مدينة التلال والشواطىء والتسعين جزيرة ، يكمل بعضها رونق البعض الآخر في تناسق هو الانسجام الامثل ، انها حلم السماء في ليلة صفو ورضى ،

وقيل فيها انها احدى ثلاث مدن هي اروع ما في العالم من حيث الجمال الطبيعي : « سيدني » في اوستراليا ، واستانبول في تركيا ، والريو في البرازيل .

وقال فيها « اناطول فرنس » : « ان الله عندما اراد ان يكافىء الانسان ابدع له ريو دي جانيرو . وعندما شاء الانسان ان يعبر للعزة الالهية عن عرفانه الجميل انشأ باريس وقدمها عربون شكر وامتنان » ..

والمتملّي سحر هذه الحسناء المغناج يجد ان كل ما قيل ويقال

فيها دون ان يؤدي شهادة الحق والصدق وافية : انها نشوة الطبيعة في عرس صفيّها الحبيب ، انها روح من براءة وامل تحيا على رغد وهناءة ، انها صومعة يختلي فيها القلب على مقربة من اقداس العلاء ، انها حياة اتخذت من الموج والصخر والغابة والنور والنقاء هياكل تزخر بالسمو والمهابة والافتتان .

فالشواطىء - ولا سيما شواطىء « كوباكابانا » - تمتد في بسطة واستطالة وتهالك تجعلها فريدة بين شواطىء الارض قاطبة . ويوم يمرح المستحمون والمستحمات بعشرات الالوف ومئاتها على تلك الشطوط - وفي كل يوم لهم ولهن مواسم انعتاق وانفلات - ينطق الرمـــل بغير لغة الذهول والوجوم ويبرز الموج بغير وجه التجهم والتمرد .

والهضاب ، من « الكوركوفادو » الى « جبل السكر » ، الى سواها من آكام التسعين جزيرة المنثورة في حسن توزيع وبهيج تنوع ، مشارف للتأمل تسبح منها النفس في غير دنيا المحسوس والملموس .

والقصور والدور بين الجنائن والخمائل واحات عذوبة وسلام . وكلها مفرغة في قالب برازيلي من طابعه الرشاقة والنمنمة والابتعاد عن الضخامة . غير ان زحف نواطح السحاب ، « البيوت - المدن » ، قد دب دبيبه في السنوات الاخيرة ، فبات يخشى ان يشوه وجه المدينة التي لم تخلق لمثل هذا الطراز من البناء .

وما من ساحة او شارع - اياً كان الموقع واياً كانت السعة - الا وللشجرة فيه بشاشة النضارة وندى الظلال .

اتيح لنا ان نزور او نمر بمعظم ما في الريو من مجالي الجمال والزخرف ، سواء أكانت من صنع الله وحده ام من صنع الخالق والمخلوق معاً :

فوقفنا عند قدمي تمثال « الفادي » المرتفع بعلو خمسة عشر متراً فوق قمة « الكوركوفادو » ، وصعدنا الى قمة « جبل السكر » ، واطللنا من كلتا الذروتين على ما تمنينا لكل عين محبة ان تقع عليه .

ومررنا بشواطىء « الكوباكابانا » بين اغرائين : اغراء البحر في مده وجزره واغراء العابثين بوقاره وامتناعه . وآمنا بان الظلام اعجز من ان يصمد امام دفقات « عقود اللؤلؤ » تنشر النور بسخاء وغزارة ليس بعدها سخاء وغزارة .

وتقلبنا في جنبات قصر « غينلي » الساجي في جزيرة «بروكيو» ، على مسير نصف ساعة بالزورق البخاري ، فذكّرنا القصر وحدائقه وملاهيه الحمر بمهرجانات للحياة تعربد فيها الخمرة وتسيطر المرأة . وشهدنا الجناح الذي نزلت فيه حسناء الصين الاولى ، زوجة « شان كاي شيك » ، يوم زارت البرازيل فاذا المقام لائق ببنات امبراطورية السماء .

واطللنا الوقوف ، في «جوا» ، امام «مغارة الصحافة» وصخرتها الهائلة العجيبة حيث وقف « البير الاول » ، ملك بلجكا عام ۱۹۲۲ ، وقفة التهيب والاعجاب .

وراعنا مرفأ للمدينة طبيعي ، بوسعه ان يستوعب اساطيل دول الارض مجموعة وفي وقت واحد .

وشهدنا الكثير المتنوع من جلال الحسن وحسن الجلال . ولو طلب مني ان اقارن وافاضل لما اختلف موقفي عن موقف « فاطمة بنت الخرشب » الانمارية، امرأة زياد العبسي ، عندما سئلت ان تفاضل بين بنيها ، وكان لها سبعة اولاد ذكور من النجباء ، فقالت : « الربيع ... لا بل عمارة ... لا بل فلان ...» ثم قالت : «ثكلتهم ان كنت اعلم ايهم افضل ! ... هم كالحلقة المفرغة لا يُدرى اين طرفاها » !

وما مفاتن الريو وبدائعها سوى تلك الحلقة المفرغة لا يدرى اين طرفاها !

وليس من يتخيل ويصف كمن يشاهد ويشهد .

تباركت ، اللهم ، في ما يسّرت للانسان ووهبت !



سدرة المنتهى

الهتافات تزول والاعمال تبقى !

[نابوليون]

ـ هذه « سان باولو » !

ـ بل هذه « مانشستر » اميركا الجنوبية !

ـ وهنا رايات العز في يد نزالة لبنان ، هي لؤلؤة التاج وزينة العرش ...

بهذا الكلام خاطبنا غير صديق من الرفاق حينما كانت الطائرة تدور في فضاء المدينة الصناعية الكبيرة .

وقلما صغر شأن الخبر امام واقع الخبر مثله عندما تسنى لنا ان نوازن بين ما يقال عن دور الجالية اللبنانية في عاصمة البرازيل الثانية وحقيقة ما يتكشف للمشاهدة والقدر والاكتناه .

قيل لنا ، من قبل ، ان اللبنانيين في سان باولو يشكلون اقوى

النزالات اللبنانية في العالم وايسرها ثراء وطاقة . وما كدنا نرى ونخبر حتى ادركنا ان جاليتنا هناك ليست من مفاخر لبنان فحسب بل من اعمدة الهيكل البرازيلي نفسه، وان ما وراءها من حقب الجهاد وما بين يديها من امكانات النتاج يحلها فوق المرتبة العالية التي احلتها فيها دعايات المنصفين والمغالين .

فهل يدري اللبنانيون اي جالية هي جالية لبنان هناك ؟

هل يدرون انها بين الجاليات الايطالية والالمانية والاسبانية ـ وكلها ممن يحسب حسابه ـ تشغل الصف الثاني في الصناعة عامة والصف الاول في صناعة الحرير خاصة ؟

هل يدرون ان لها في سان باولو ـ مدينة وولاية ـ نحو الثلاثمائه مصنع، بين كبير وصغير، تشغل ما يناهز المئة والاربعين الفاً من العمال ؟

هل يدرون ان من مصانعها ما ينتج الحديد والحرير والورق والجوخ والمنسوجات القطنية والادوات الآلية ؟

هل يدرون ان مجموع رؤوس اموالها الموقوفة على الصناعة يفوق المليار من الليرات اللبنانية ؟

هل يدرون ان لبعض ابنائها من العقارات ما تعادل مساحته مساحة الجمهورية اللبنانية نفسها ؟

هل يدرون ان مقامها في التجارة مقام الصدارة والتفوق ؟

هل يدرون ان لها من الدور والقصور ما تعز نظائره في الوطن الاول وفي ما هو اغنى واكبر من الوطن الاول ؟

هل يدرون ان ناديها ، « نادي جبل لبنان الرياضي » ، من افخم الاندية موقعاً واتساعاً واناقة ، ومن اوفاها ازدهاراً وعلو جبين ؟

هل يدرون ان مركزها الادبي والاجتماعي والسياسي في صف الطليعة ؟

هل يدري اللبنانيون كل ذلك ، او بعضه ، او شيئاً عنه ؟.،

* * *

عندما زرنا حاكم ولاية سان باولو ، السيد « اديمار دي باروس »، وهو على جانب كبير من لطف المعشر وانس المجلس ، استهل كلامه بهذه النكتة ، قال :

« عاد مغترب لبناني مرة الى سان باولو ، بعد غيابه عنها بضع عشرة سنة ، فدار بينه وبين صديق له هذا الحديث :

قال المغترب : ما الاخبار عن « اميليو كارلوس » ؟ - وهو متحدر من اصل لبناني ، من « بنتاعل » في بلاد جبيل -

قال الصديق : انه نائب في المجلس الاتحادي ؟

— واين اصبح « سامون جورج » ؟

— انه نائب في مجلس الولاية .

— والسيد نجيب يافث ؟

— انه مدير مصرف الولاية .

— ومن هو الحاكم اليوم ؟

— « اديمار دي باروس » ..

وهنا هزّ المغترب رأسه هزة قلة الرضى واستطرد يقول : ألم

تجدوا لبنانياً غير هذا الاجنبي تعهدون اليه في تسلم مقاليد الحكم »؟.

هذا ما رواه السيد « ادعار » بظرف ولباقة شائقين ، وكان اول المسترسلين في قهقهة صافية عنت الكثير مما لا يستطيع الكلام ان يعنيه .

وتجاذبنا الحديث والحاكم فعرفنا ان ثمة نيفاً وخمسين لبنانياً يشغلون في الولاية اما رئاسة المجالس البلدية واما مراكز العضوية فيها ، كما عرفنا ان ثمة عدداً كبيراً من اللبناني الاصل يعملون في مناصب الادارة والقضاء والخبرة والتخصص في الولاية وفي سائر اجهزة ولايات الدولة الاخرى .

وفي الانتخابات العامة التي جرت في البرازيل صيف ١٩٥٠ كان بين الفائزين ما لا يقل عن العشرين نائباً من المتحدرين . وفي اوائل شباط ١٩٥٠ ، عندما تولى « جيتوليو فرغاس » ، رئاسة الجمهورية انتدب « ريكاردو يافث » ، احد اغصان الدوحة اليافثية الكريمة وابن اللوائي العظيم المعلم نعمه يافث ، ليكون مديراً لمصرف الدولة ، وهو منصب برتبة وزير من وزراء الدولة .

* * *

« العصبة الاندلسية » في سان باولو ، وقد انشأها المغفور له ميشال معلوف لنحو سبع عشرة سنة خلت على غرار «الرابطة القلمية» لادباء العربية في الولايات المتحدة الشمالية ، مازالت ماضية في تأدية رسالتها على يد رئيسها الشاعر شفيق معلوف وعدد من ادباء لبنان وسوريا .

وفي اجتماع لنا باركان العصبة كانت نقطة الوجوم التخوف من حلول مستقبل قريب يتعذر فيه سد الثُغَر من جهة بقدر ما يتعذر ايجاد القراء للنتاج الادبي بلغة الضاد من جهة ثانية . وكان من رأي الاجماع ان اللغة العربية ، في البرازيل وفي ما سواها من ديار الاغتراب اللبناني ، بالغة حتماً ، بعد عشرين او ثلاثين من السنين ، قمة الجلجلة التي تتسلقها بوهن واعياء .

وفي نظرات ادباء لبنانيين متحدرين ان الادب اللبناني يجب ان يظل مورق المنبر ولو لجأ الى قوالب اللغة البورتغالية وغيرها من اللغات الاجنبية .

وعلى ذكر هؤلاء الادباء المتحدرين لا يسعنا الا ان ننوّه بفريق من البارزين منهم وفي مقدمتهم : جميل منصور الحداد ، وهو شاعر وعضو في المجمع العلمي في سان باولو ، ومن مؤلفاته ديوان « صلوات سوداء » . وسلمون جورج ، وهو عضو في المجمع العلمي الآنف الذكر وصاحب عدة مؤلفات منها ديوانا شعر هما « عربيات » و« جمال الموت » . وماريو نعمه ، واميل فرحات ، وداود نصر ، واميل كارلوس ، وساسيل غنام ، ونعيم ابوسمره ... ولكل منهم مؤلفات في الشعر والقصص حازت وتحوز اعجاب اعلام الادب البرازيلي . وان ننسَ لا ننسَ فؤاد نمر « واضع اهم كتاب في شوارد اللغة البورتغالية وصلتها باللغات الشرقية ولا سيما العربية » ، وهو كتاب وصفه كبار اللغويين بكونه « فتحاً مبيناً في هذه الابحاث الغامضة التي لا يستوعبها الا اصحاب المواهب النيّرة » .

وهنـــاك نقطة وجوم ثانية ترتسم في افق الوثبة المـــالية والاقتصادية التي حققها المغترب اللبناني . فمن الآراء المصيبة ، في هذا الصدد ، ما يقول بان التقدم الواسع الذي ظفر به المجهود الفردي اللبناني لا يستطيع ان يتابع سيره الصاعد ، بل قد لا يقوى على الاحتفاظ بالمستوى الذي وصل اليه ان لم يعدل عن الاعتماد على الفردية الى الجماعية .

ومن هذه الآراء ما يقول ان يوماً يتوارى فيه عن الميدان نفر من كبار البناة ، دعائم هذا الكيان الباذخ في عالم المال والاقتصاد ، هو يوم يكتب فيه لكثير من مرافق النشاط اللبناني ان تجمد او تتقهقر . وخير ما تُتدارك به هذه الحالة ، قبل ان تدهمها المغايرات ، ان يُعمد الى تأليف شركات تريح الافراد بحلولها محلهم ، وتمضي قدماً بما انشأوا واسسوا في دروب التقدم والفلاح .

ان معضلة الخلافة ـ اذا جاز الاصطلاح ـ معضلة حريّة بان تكون ذات موضوع ، ضناً بالحاضر ورحمة بالمستقبل . ولعل مغتربينا يتنبهون لهذا الامر ، فيضمنون للسلسلة اتصال الحلقات وللأثر الكريم دوام الخصب . انهم على قدر المهمة والرجاء !

اشراق وعبوس

من عرف الحق عز عليه ان يراه مهضوماً

[الامام محمد عبده]

« ... انت ، ايها اللبناني المتجول في سائر انحاء البرازيل ، انت ، يا من تذلل مجاهل الداخل وتستقبل بوجهك حرارة الشمس المحرقة ، وتثقل منكبيك الامطار الغزيرة ، ارفع رأسك الى العلاء واشكر الله لكونك خلقت لبنانياً ... فلو لم يخلقني الله برازيلياً ـ واني لفخور بهذه الجنسية ـ لما اخترت غير الجنسية اللبنانية جنسية لي » ...

هذه كلمة للكردينال « سباستيان لامي » ، رئيس اساقفة ريو دي جانيرو سابقاً ، ارسلها صاحبها دلالة على ما جبه ويجبه نضال المغترب اللبناني من خشونة العقبة والمشقة ، واعترافاً بما لهذا المغترب نفسه من رفيع منزلة في الارض التي توطنها .

فكم نحن ؟ ومن نحن في البرازيل ؟

للهجرة اللبنانية الى البرازيل تاريخ يمتد الى ثمانين عاماً في اعماق الامس .

وبقدر ما خان الدولة في لبنان ويخونها علم الاحصاء وفنه ، بما لهما من قواعد وطرائق ، بقدر ذلك يخونها هذا الفن وذلك العلم - وعلى درجات سلم اشدّ انفراجاً - في المدى الخاص بالمغتربين . ومن المحال ان تتمكن اجهزة الدولة ، منفردة او مجتمعة ، في وضعها الراهن ، من ان تعطي عن جالياتنا في المهاجر احصاء يجوز الركون اليه ركوناً مفروضاً في ما يصدر عن الدول صدور الاطلاع واليقين .

فمن العهد العثماني الى العهد الانتدابي ، الى العهد الاستقلالي ، لا يزال المغتربون يفتشون بالسراج والفتيلة عن السلطة الرسمية التي يهمها امر التفتيش عنهم . وان يكن من الانصاف ان نعلن ان التمثيل الخارجي قد اخذ يعنى بهذه القضية فمن الواجب ان نعلن ايضاً ان الشوط الذي قطع في هـذا المضمار ليس سوى الألف في ابجدية تعد حروفها بالعشرات . وان لم يُعمد الى اساليب احصائية اجـدى نفاذاً وامضى اسراعاً فـلا يستبعد ان يضيع المغتربون في شتى تيارات التواري والالتباس قبل ان توفق الدولة لمعرفتهم معرفة الصحة المستطاعة .

ومتى علمنـا ان مساحة البرازيل ثمانية مـلايين ونصف المليون من الـكيلومترات المربعة موزّعة على احـدى وعشرين ولاية تضرب بينها المسافات والابعاد الشواسع ، ومتى علمنـا ان للبنانيين اثراً

وانتشاراً في كل من هذه الولايات الواحدة والعشرين ، ومتى التفتنا الى مشكلة تحريف الاسماء ابدالاً وتعديلاً الالتفات الضروري ، ومتى سلمنا بان دوائر المفوضيات والقنصليات عاجزة عن التفرغ لشؤون الاحصاء ... متى نظرنا الى ذلك كله امكننا ان نخرج بصورة مصغرة عن العقبات المنتصبة في الطريق وعما يُلزم به التغلب عليها من جدّ وكدّ وانقطاع لهذا العمل الخطير .

يتراوح عدد ابناء الجاليات اللبنانية في البرازيل ، من اصيلين ومتحدرين ، بين المئة والثمانين والمئتين من الالوف .

ومن الناس من يرفع هذا العدد الى الثلاثمائة الف ، ومنهم من يراه مبالغاً فيه فيخفضه ـ من قبيل المشاكسة ـ الى الحد الذي لا يسلم به منطق . بيد ان الكثرة الواعية والمنصفة ترى العدد الذي نعتمد هو الاقرب الى الحقيقة والقدر الصحيح .

وعلى التفاف السواد الاعظم من هذا العدد حول المدن فانمنهم من ضرب ويضرب في المجاهل البرازيلية غير هياب ولا وجل . وثمة روايتان عن حادثتين شهيرتين تشيران الى اي عمق سحيق قاد التوغل فريقاً منهم :

كان « تيودور روزفلت » ـ احد رؤساء الولايات المتحدة الاميركية ـ من المولعين بصيد الوحوش . وكان من عادته ان يتردد الى بعض اصقاع البرازيل تلبية لنداء هذا الولع .

واذ كان يصطاد في البرازيل ، ذات مرة في مطلع هذا القرن ، اوغل وبعض مرافقيه حيث خيل اليهم انهم ربما كانوا اول بشر

يطرقون ذلك المكان . ولكن كم كانت دهشتهم شديدة اذ عثروا على نسخة من جريدة باللغة العربية اشارت قرائنها الى ان لبنانياً ما قد سبقهم الى التجوال في تلك البقعة القصيّة .

اما الحادثة الثانية فمؤداها ان مغترباً لبنانياً من كسروان ذهب يوماً بعيداً في احدى البراري الموحشة . وادركه الليل وهو في منأى عن اي موطن آهل . فانزوى بقرب كوخ كان يحسبه مهجوراً ينشد الراحة ويرتقب الفجر . ولم يمضِ عليه وقت قصير حتى سمع لغواً ولغطاً يقتربان منه . ثم ما عتم ان رأى نفراً من الرجال ، في ايديهم مشاعل وفي حالة مريبة ، يتقدمون منه . ووصلوا الى الكوخ فايقن المغترب انه هالك لا محالة . فلم يكن منه الا ان جثا على ركبتيه وهتف عفواً ، بصوت عال : « يا سيدة حريصا ، خلّصيني » . فاذا صوت من الجماعة التي كانت قد دنت منه يرد عليه باللغة العربية : « كن مطمئناً ، فانني انا ايضاً ممن « يعرفون » سيدة حريصا ، عليها السلام » ..

* * *

... ومن نحن في البرازيل ؟

في لوحات سابقة عن الجاليات اللبنانية في البرازيل بعض الابانة عن حقيقة ما لنا هناك من رفعة شأن وعاطر صيت :

ففي ظل راية الفكر والقلم يعلو الجبين اللبناني قبسة حية من قبسات المعرفة والنهضة .

في عالم السياسة اسماء لبنانية تشق طريقها ولسان حالها يردد مع الشاعر : « ... لنا الصدر دون العالمين او القبر » !

وفي مناحي الصناعة والتجارة والزراعة وثبات وانطلاقات كانت حلماً فاستحالت وقائع .

وفي كل مظهر من مظاهر النشاط والنتاج عنوان لبناني بارز الاحرف ...

وانما من المؤسف الا تكون سائر خطوط تلك اللوحات مياسم اغتباط واعتداد . ولئن يكن العرف قد قضى بالا يُذكر عن الاغتراب اللبناني - في البرازيل وغير البرازيل - سوى عناوين الاشراق والاعتزاز فان وراء تلك العناوين حقباً من الجلاد والاستشهاد ، فضلاً عن الوف والوف من انداد « المغترب المجهول » ممن جمد بؤسهم وخمل ذكرهم في المنحدر الثاني من بهرجة الثراء والشهرة .

ومن المؤسف ان تكون الظلال ، في احيان كثيرة ، اقوى من الاضواء .

ومن المؤسف ان تكون النحوس في احدى كفتي الميزان اكثر ثقلاً من السعود في الكفة الثانية .

ومن المؤسف ان يقف الناس في نظراتهم الى المغتربين عند الوجه الضاحك متنكبين او متغاضين عن الوقوف عند الوجه الباكي ...

لا يُنكر ان هناك فريقاً من المغتربين كبيراً امسى يفترش من الحياة اهنأ ما بسطت وتبسط من ورود الرغد والجاه والنعمة . الا ان ثمة فريقاً آخر لم يفرش له الاغتراب سوى الشوك والصقيع والشظف .

فكم من نازح نزف العافية والشباب ولا يزال مفتقراً الى ما يعينه على القيام بأود يومه ؟

وكم من مغترب كبا به جواد جدّه فسقط السقطة التي ليس منها نهوض ؟

وكم من بائس هجر الوطن طمعاً في الخلاص من كوابيس الضيق فاذا هو في الارض الجديدة شلو بين نابين : ناب الوحشة وناب الحرمان؟ ...

لقد جرف تيّار الهجرة كثيرين ممن اغتربوا متأثرين بعوامل وحوافز ما كانت لتجيز لهم مثل هذه المجاذفة .

لقد نأوا عن التربة الرضية في الوطن العزيز الى دار جفوة وجفاف ، في مجهل من الارض ، ثم ثووا غرباء ، معدمين ، يتجرّعون الغصص ويعضون على الجراح .

ان الحكومات الجديرة بحمل هذا الاسم في الدول الخليقة بان تُعدَّ دولاً لا تتسامح ولا تتساهل وبنيها عندما يعنّ لهم ان يطوّحوا بانفسهم تطويح الاغترار والضياع ، ولا تسمح بان تكون الهجرة فوضى تسوء وتسيىء. وليت حكومات لبنان تفيق وتعي وتقتدي ، فلا يبقى لنا في ديار الاغتراب هذا العدد الهائل من البائسين التائهين في جحيم من الاهمال والخسران ، ولا يتمادى فصد رهيب اوشك ان يذهب بالبقية الباقية في الشرايين .

* * *

ايّاً كانت اوضاع ابناء نزالات لبنان في البرازيل .

سواء أكانوا من ذوي اليسار ام من مفترشي الغبراء وملتحفي السماء .

وايا كان تشتيتهم ووحدة شملهم .

فكلهم جنود عقيدة لبنانية بها يستمسكون ، وكلهم فرسان وطنية شيمتها ان تبذل دون ان تقايض ، وكلهم غضاب ثورة وطلاب نزال كلما قيل لهم ان في الوطن الاول محاولين يحاولون التنكر لهم ولحقوقهم ، ومحاولات ترمي الى حرمانهم آخر ما لا يجوز ان يحرمه انسان .

انهم يعرفون الحق ، فيعزّ عليهم ان يروه مظلوماً !



معدن الطيّب

بدعت فرنسا ، بثورتها التاريخية ، الديمقراطية الا ان الشعب
الوحيد الذي يعمل بها انما هو الشعب البرازيلي

[اناطول فرانس]

تعدّ البرازيل البلد الرابع في العالم من حيث اتساع الرقعة وانبساط التخوم . وتكاد تشغل وحدها نصف مساحة اميركا الجنوبية ، فتمتد الثمانية ملايين ونصف المليون من كيلومتراتها المربعة على خطوط متعددة ومتنوعة من الطول والعرض الجغرافيين ، مما يطبع مرافق ثروتها الطبيعية ومصادرها بطابع من التكاثر والتنوع والتكامل يندر ان يقوم نظير لها في غير دولتين او ثلاث من دول الارض قاطبة .

وفي البرازيل احدى وعشرون ولاية تؤلّف « ولايات البرازيل المتحدة » . ويقدر عدد سكانها بنحو الخمسين مليوناً يعيشون في مدى

قين بان يستوعب تسعمائة مليون من البشر دون ان يضيق بهم صدر المعاش او يجفّ ثدي المرتزق .

وامكانات العطاء المخزونة في تربة البرازيل فوق ان يطولها حصر بتحديد . وما استُغل من هذه الامكانات ، حتى اليوم ، ليس سوى جزء من مئة ، بل من الف ، مما لم تتناوله يد الاستغلال بعد .

ويروي الرواة ان الاهلين ، في بعض المناطق والاقاليم الغنية بالخيرات الزراعية ، لا يأتون عملاً ولا يكلفون انفسهم سعياً ، فيعيشون مما تجود به الطبيعة من ثمار جود البداهة والاستمرار .

وان كان للحرير مثلاً موسم او موسمان في هذا او ذاك من البلدان ، فان له في البرازيل اربعة او خمسة من المواسم سنوياً .

وتنهد السلطات البرازيلية حالاً الى توجيه الانظار والجهود شطر الزراعة . وبقدر ما تشدّد في قبول طلاب الاشتغال بالصناعة او التجارة او المهن الحرّة بقدر ذلك تفتح ذراعيها للترحيب بالمزارعين ، باذلة لهم اقصى ما يمكن ان يحلم به حالم في مجال المعونة والتشجيع .

وفي مقابلة لنا والسيد « راوول فرناندز » ، يوم كان وزير الشؤون الخارجية ، لم يكتمنا الوزير رغبة حكومته الملحّة في ان تزداد هجرة الفلاحين والمزارعين الى بلاده .

وليست المواصلات في البرازيل — وقد يكون هذا سبباً رئيسياً في العزوف عن الاشتغال بالزراعة — متكافئة وما تستلزمه الضرورات : فهناك شباك للخطوط الحديدية لا تلبي الا اليسير اليسير من نداءات الحاجة ، وهناك طرق برية في حالة من النقص في العدد

والاهمال في الترميم لا تتوافق مطلقاً وتطورات العصر ومقتضياته ، وهناك خطوط بحرية زادتها عجزاً وشللاً البواعث نفسها التي جعلت الملاحة ، في اعقاب الحرب ، ضيّقة النطاق كسيحة الانطلاق . وقبل الحرب كانت نفقات نقل البضائع من « بورتو ألغري » الى « ريسيف » — وكلتا المدينتين في البرازيل على شاطىء الاطلسي — بطريق « هامبورغ » في المانيا ، اقلّ منها بين المدينتين المذكورتين مباشرة . وهناك خطوط جوية ناشطة يرجح ان يكون عليها اعتماد المستقبل للتعويض من نقص كبير الفراغ .

ويجدر بالذكر ان حركة الطيران بين سان باولو وريو دي جانيرو تضرب الرقم القياسي العالمي بالنشاط والكثرة . ويوم يتيسر للبرازيل اسطول تجاري يتفق وما هي عليه من انفلات مدى وايناع موارد ، ويوم تكثر فيها شباك الطرق البرية والخطوط الحديدية وفقاً لما توصي به حاجاتها ... يومذاك تطلّ هذه الدولة الكبيرة على عهد من الانفتاح والازدهار والاقبال يكون عهدها الذهبي بدون ما نزاع .

لقد وعد وعاهد الرئيس « جيتوليو فرغاس » مؤخراً على جعل هذه النقطة في رأس منهاجه الانشائي ، ولعله موفق الى البر بوعده والوفاء لعهده .

اما الشعب البرازيلي فشعب طيّب الاحدوثة ، حلو المخالقة ، مرح ، سعيد ، يكره سفك الدماء ، يعجب بالتسامح ، ويطمح الى اعلى فضائل الحضارة . وانه لمن الشعوب النادرة والقليلة ليس في اميركا اللاتينية فحسب بل في العالم من حيث رحابة صدره السياسية . وكثيراً

ما يُرى رجال السياسة المتعارضو المبادىء والمتباينو الافكار مجتمعين معاً حول مائدة غداء او عشاء، في ظل ود وصداقة حقيقيين، للتناقش في قضايا لا يتفقون عليها.

وللمناخ ـ ومعظم درجاته دفء وحرارة يبعثان على الفتور والتراخي ـ اثره الكبير في تكييف هذا الشعب الذي قلما تأخذه حدّة الكدح ودقة الانضباط، والذي يجنح باخلاص الى الاسترسال في اللهو والعَبّ من مباهج السرور.

ومن يشهد كيف تبدو ريودي جانيرو وسواها من مدن البرازيل ودساكرها وقراها في ايام « المرفع » الثلاثة يكتشف ما لا يستطيع ان يجد نموذجاً له خارج البرازيل. ففي هذه الايام الثلاثة ينقطع الجميع عن العمل، وتتحول الساحات والشوارع، ليلاً ونهاراً، الى مراقص تضج فيها موسيقى « السامبا » على اهازيج الهازجين واغاني المغنين وهتافات الهاتفين. ويندفع الشعب، بسائر فئاته وطبقاته، الى الرقص والغناء اندفاعاً، عنيفاً، متواصلا، بدون ما نوم ولا استراحة، وهو في حمّى من النشوة البريئة تجلو عن الانسان صورة من صور الفطرة والسليقة في اصدق الوانها وتعابيرها.

ومما يلفت النظر في عادات الشعب البرازيلي والعائشين بين ظهرانيه طريقة تبادل التحية عند اللقاء والفراق. فليس بين الرجال مصافحة او تقبيل بل احتضان ومعانقة يتبادل فيها صاحبا التحية الضمّ ـ او « العبطة » على حد تعبيرنا العامي ـ مصحوباً بربت خفيف على الظهر. اما النساء فيتبادلن التحية عن طريق الاحتضان ايضاً

ووضع الخد على الخد بدون تقبيل . وتُعلّل هذه العادة بردها الى اعتبارات صحية اوصت بها المحافظة على السلامة العامة في بعض الظروف الطارئة ، ثم درجت تقليداً مستحباً . ومهما يكن من امر فانها عادة حميدة تؤدي رسالة التحية دون ان تسيىء الى العاطفة ودون ان تتسبب للصحة بتعريض مضرة .

* * *

للديمقراطية في البرازيل لواء عالي الذروة ، وضاح الاسارير .

وتتجلى هذه الديمقراطية في صفوف الشعب مثلها في اوساط الحاكمين ، وقد نضت عنها اقنعة الزيف والتمويه .

وحريات الديمقراطية مصونة ومحترمة الى اقصى حدود الصيانة والاحترام .

وقد شهدنا في مدينة سان باولو معركة سياسية حادة دارت رحاها بين حاكم الولاية ومعارضيه ، فقدرنا الحرية الواسعة يتمتع بها الشعب في اشتراكه في تولي مقدراته . وكم كان طريفاً ذلك البراز بين الحاكم وحزبه من جهة والحزب المعارض من جهة ثانية . لقد كان برازاً استخدم فيه الفريقان المتبارزان اقسى ما في معجم الطعن والاغلاظ في القول من فصاحة وبلاغة . وتبودل التعيير والتراشق بالاتهامات المزلزلة في اذاعات الاثير وعلى منابر الصحافة والخطابة بمنتهى الصراحة الخشنة ، والجرأة المتطرفة . هذا ولم يفكر الحاكم لحظة واحدة في اللجوء الى تدابير القمع والكبت عن طريق سلطان الحكم كما هي السنّة في البلدان المفسدة على الديمقراطية روحها ونصها ونهجها .

وكما يقول المؤرخ والاديب الالماني « اميل لودفيغ » : « ان في قرارة كل ديمقراطية شوهاء جرثومة من جراثيم الديكتاتورية » كذلك يقول المتحدثون عن عهد « جيتوليو فرغاس » الاول ، وقد قضى في الحكم ثلاث عشرة سنة ، من ١٩٣٠ الى ١٩٤٣ ، فيبرئون قيام ذلك العهد بما كان قبله من مساوىء وخطيئات ارتكبت باسم الديمقراطية وهي منها براء .

وها هو « جيتوليو » ـ كما يسميه السواد الاعظم من البرازيليين تحبباً وديمقراطية ـ يعود مرة ثانية الى « غوانابارا » ، اي « بيت البرازيل الابيض » ، على غرار بيت الولايات المتحدة الابيض . يعود الى الحكم ووراءه ماضٍ من مجد وفخار ، وامامه ـ بل امام البرازيل ـ مستقبل حافل بالآمال والتبعات : جعلها الله تبعات موفقة الالتزام وآمالاً زاهية البشرى خيّرة الجنى !



الحديث ذو شجون

من اكبر نكبات الامة ان يحتقر بعضها البعض الآخر

[جوبير]

السبت ٣ تموز ...

ودعنا سان باولو ونحن كمن يهبط من السماء او يصحو من حلم مذهب .

لقد طوينا الاسابيع الخمسة في البرازيل وكأنها ايماضة البسمة او تفتق الفجر في احد اصباح لبنان الربيعية الرائقة . وكانت ايامها اعراساً لها كل خيلاء النبل ، وكل ابهة الجلال ، وكل هناءة الغبطة ، فتقلبنا والجالية العظيمة فيها على صدق من الرضى ووفاء من الوطنية وسماح من الولاء ، وكأننا قد سلخنا ـ الى حين ـ عن دنيا اشركت بالصدق والوفاء والولاء .

*

... قامت بنا الطائرة من سان باولو متأخرة عن موعدها المحدد ساعة وبعض الساعة .

وكانت وجهتنا « مونتيفيدايو » ، عاصمة « الاوروغواي » ، تلبية لدعوة الجالية اللبنانية هناك .

وسرعان ما لفت الطائرة حجب من السحاب لم يكن معها وفيها امل في النفاذ الى النور . وعند الدقيقة الخامسة عشرة ظهراً هبت علينا عاصفة جامحة ، شديدة السخط . فهاجت الانواء هياج الجنون ، وهطلت الامطار كما لو كانت تفرغ من افواه القرب ، واخذت الطائرة تترجّح تارة الى اليمين وتارة الى الشمال ، وحيناً انحداراً وآونة ارتفاعاً ، كريشة خفيفة في قبضة الاعصار الثائر .

وطلب احد معاوني الربان من الركاب ان يشدوا الرُبُط المعتاد شدها عند قيام الطائرة وهبوطها . وانقضت بضع عشرة دقيقة امتقعت فيها الوجوه امتقاع الذعر والهلع . وجمد الدم في عروق كثيرة تحت وطأة الخضخضة القاسية والايجاس خيفة من خطر داهم . وعندما اشعر المسافرون باجتيازهم هول العاصفة لم يتملكوا عن ان يتبادل بعضهم والبعض الآخر نظرات المبتهج بنجاة من محنة والمطمئن الى التفريج من كرب .

وعند الدقيقة العشرين بعد الساعة الثالثة عصراً حطت الطائرة في « بورتو أليغري » ـ المرفأ المرح ـ لتتمون وقوداً قبل استئنافها الطيران الى مونتيفيدايو ، وقد كنا منها على مرحلة ساعتين ونصف الساعة .

غير ان ادارة شركة « بان اميركان » التابعة لها الطائرة بادرت الى ابلاغ المسافرين استحالة النزول في مونتيفيدايو ، لرداءة الحالة الجوية هناك . كما ابلغتهم وجوب قضاء الليل في بورتو اليغري ، على ان يظلوا متأهبين للسفر في اي ساعة تستدعيهم فيها . و « المرفأ المرح » من مدن البرازيل الكبرى ، يبلغ عدد سكانها نيفاً ونصف المليون ، للبنان بينهم جالية لا يقل عدد ابنائها عن الالفين . ومعظم سكان المدينة متحدرون من اصل الماني تنم سيماؤهم عن حقيقة عرقهم .

*

... الساعة الخامسة من صباح الاحد ٤ تموز رنت اجراس الهاتف في غرف المسافرين توقظهم من النوم ثم يدعوهم الداعي الى الاستعداد للذهاب الى المطار عند الساعة السادسة .

واقمنا في المطار ننتظر موعد السفر . ومرت ساعة فساعتان والاخبار عن الحالة الجوية غير مرضية . وفي الدقيقة الاربعين بعد الساعة الثامنة سمح لنا بان نبرح مطار بورتو اليغري . فبرحناه ـ وفي الحساب والحسبان ـ استناداً الى التعليمات المعلنة ، ان الطائرة قد تقسر على العودة اليه ، اذا لم يسعفها الطقس على الهبوط حيث تقصد . وحينما لاحت ، عن بعد ، سماء مونتيفيدايو وقد انقشع عنها الضباب عدو الطيران الالد ، كان الربان اول من بدا الارتياح على محياه وهو يتنقل بين مقاعد المسافرين .

* * *

في التاريخ ان « خوان دياز دي سوليس » وقف عام ١٥١٦ ،

يوم اكتشف الاوروغواي ، في عرض البحر ، مواجهاً المكان الذي تقوم فيه عاصمة البلاد وقال : « مونتيفيدايو » ! اي ما ترجمته : « انني ارى جبلاً » .

وفي الواقع تقوم هـذه العاصمة على هضبة قليلة الارتفاع ، في مصب « الريو دي لا بلاتا » العريض ، الواسع . وتعد من احـدث المدن العصرية في اميركا خاصة والعالم عامة . وهي على جانب كبير من اناقة الهندسة ونصاعة الوجه . وتمتد على عشرين كيلومتراً طولاً بعرض عشرة كيلومترات ، وتمتاز بشاطئها القريب الشبه من « الريفييرا » الفرنسية ، والمؤلف مع شواطىء « بونتي دي ليستي » و « اتلنتيدا » و « كورونيجا » مصايف ساحرة يتردد اليها طلاب الاصطياف بعشرات الالوف كل عام .

وللمدينة حدائق عامة كبيرة وكثيرة ترصد البلدية للعناية بها سنوياً نحو المليون دولار . وفي احدى تلك الحدائق ـ حديقة « ساحة سابالا » ـ شجرة ارز جاوز عمرها المئة من السنين . وقد حججنا اليها غير مرة ، ذاكرين ارزنا المتمرد على الدهر والفناء .

ومما قصه علينا محافظ المدينة انه مرّ ، قبل ان ينتدب لمهامّ المحافظة ، بوظيفة رئيس للخدم في احـد فنادق العاصمة الكبيرة ، وذلك من قبيل اعداده للاطلاع على ما يرضي المصطافين والسياح او يغضبهم والالمـام بسر هو في مقدمة اسرار بناء السمعة العطرة او عكسها . فضلاً عن ان خدم الفنـادق يعتبرون موظفين حكـوميين ، لهم ما لزملائهم من الحقوق وعليهم ما على اولئك الزملاء من

الواجبات .

وتبرز في خليج مونتيفيديو ، في بعض ساعات جزر البحر ساريتان كان لهما في الحرب الماضية تاريخ ودوي : تانك هما ساريتا دارعة الجيب الالمانية « غراف فون سبي » ، وقد انتحرت في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والاربعين من مساء ١٧ كانون الاول ١٩٣٩ بعد ان تعذر عليها الافلات من قبضة الاسطول البريطاني الذي كان يتربص بها . ومما قاله تشرشل في « لانغسدورف » ، قائد الدارعة : « انه رجل من طراز عال » .

*

تعد « جمهورية الاوروغواي الشرقية » ـ وهذا اسم دولة الاوروغواي المتواضع عليه ـ ثلاثة ملايين من النفوس منها نحو المليون في العاصمة .

وشعب الاوروغواي من ارقى الشعوب ، وهو في اميركا بمثابة شعوب « سكندينافيا » في اوربا من اي النواحي نظرت اليه : فنيف وتسعون في المئة من ابنائه متعلمون . والتعليم في درجاته الثلاث من ابتدائية الى ثانوية الى عالية مجاني . والتعليم الابتدائي الزامي . وجل ما في الامر ان ثمة ضريبة هي « ضريبة التعليم » وقدرها الشهري نحو ليرة لبنانية واحدة يدفعها كل من المكلفين .

وللدولة تشريع اجتماعي تقدمي لا مثيل له في افضل دول العالم تقدماً وحضارة ورقياً . والضمان الاجتماعي الذي كثر الكلام عليه في السنوات الاخيرة مما طبقته الاوروغواي لخمس وعشرين سنة خلت .

ومن حسنات هذا التشريع ان تشمل ابوابه، في الحد الادنى من الاجور ، القائمين باشغال الزراعة وما اليها ، عدا شمولها موظفي الحكومة وسائر فئات الأُجراء الاخرى، وهذا مما لم يعرف نظير له في غير الاوروغواي. وثمة قانون اسمه « قانون المقعد » يلزم ارباب الاعمال بان ييسروا المقاعد الضرورية للعاملات في مصالحهم ، في المخابز ومصانع النسيج مثلاً .

والتطبيب المجاني ، من توليد الى جراحة الى طب اسنان ... في متنوع محاسنه وعميم فوائده ، في متناول اي محتاج الى خدمة من خدماته . وفي بعض التقارير الامية ان اعلى نسبة في الوفيات انما هي في مصر وان اقل بلاد العالم في نسبة الوفيات انما هي الاوروغواي .

وهناك ظاهرتان لا اثر لهما في تلك البلاد : الفقر والغنى الفاحش. ولئن تكن الاوروغواي على هذا الصعيد من الرقي والتقدم فالفضل في ذلك يعود الى رجلين كبيرين : اولهما خالق الاوروغواي وباني استقلالها « الجنرال خوسه ارتيغاس » ، صاحب الشعار القائل : «مع الحرية لا اسيىء الى احد ولا اخاف احداً » ، وثانيهما « خوسه باجي إي اوردونيز » وقد تولى حكم البلاد من ١٩٠٣ الى ١٩٢٦ فمهرها بالعدد الكبير من شرائع الاصلاح الحاملة طابعه ، ودفعها اشواطاً في دروب المنعة والرخاء .

* * *

يرجع تاريخ المغتربين اللبنانيين الأُول الذين امّوا الاوروغواي الى سنة ١٨٨٢ ، وقد جاؤوها عهدذاك من البرازيل .

ويتراوح عدد النزالة اليوم بين الـ ١٣ والـ ١٥ الفاً ، منهم نحو الثلث في العاصمة والثلثان الآخران في التسع عشرة ولاية المؤلفة الجمهورية .

وللنزالة مكانتها المرموقة . ومن اركانها من انصرف الى التجارة والصناعة ، ومنهم من خاض ميادين المهن الحرة من طب ومحاماة وهندسة ، ومنهم من اقبل على السياسة يعمل في الحزبين الوحيدين في البلاد وهما « الحزب الابيض » ـ اي حزب المحافظين ـ و « الحزب الاحمر » ـ اي حزب الاحرار .

ومما يؤثر عن وزير الشؤون الخارجية الدكتور « دانيال كاستليانو » انه وضع ، قبل اضطلاعه باعباء الوزارة ، تقريراً عن الهجرة الاجنبية الى الاوروغواي اشار فيه بقبول العنصر اللبناني في مقدمة العناصر الواجب الترخيص لها بدخول البلاد .

ومن القوانين المعمول بها ان المتجنس بجنسية الاوروغواي لا يفقد جنسيته الاولى . وابناء الجالية كلهم حراص على التمسك بالجنسية اللبنانية . الا انهم ، كاخوانهم المغتربين ، ناقمون اشد النقمة على السياسات التي تجبن عن انصافهم واحقاق حقهم في الوطن الاول . وقد بلغ من فرط استيائهم انهم اصبحوا يحتقرون مر الاحتقار كل من يشترك ـ ان عمداً او جبناً او تعصباً ـ في المؤامرة ـ اجل المؤامرة كما يسمونها ـ التي تنصب فخاخها ضدهم وضد مصلحة الوطن العليا .

وما اعظم ما يتحلّون به ساعة يفرقون بين تعلقهم بلبنان وبكل حبة من ترابه من جهة ، واستخفافهم بعداورات الجبن والصغار المبيتة

لهم من جهة ثانية . انهم ، في الحالة الاولى ، على ايمان كايمان الانبياء وحب كحب الشهداء ، وفي الحالة الثانية على كبر ككبر الارز في تعاليه وشموخ كشموخ صنين في انفته ، له جوار النجم فلا تقع عيناه على ما في كهوف « وادي الجماجم » من عفونة الشتاء وادرانه . وان لهم ، في كلتا الحالتين ، لبنان . وما من قوة في العالم تستطيع ان تنتزعه منهم او تعزف بهم عنه .

انهم يؤمنون بحب ، ويحبون بايمان !



اولئك ابنائي !..

ابناء لبنان هم الذين يتغلبون على محيطهم اينما حلوا ، ويجتذبون القلوب اليهم اينما وجدوا ، وهم الذين يولدون في الاكواخ ويموتون في قصور العلم

[جبران خليل جبران]

— « لينزل الوفد الكتائبي اولاً » ! ...

كانت هذه العبارة اول ما سمعناه وسمعه رفاقنا في الطائرة ، بعد ان هدأ هدير محركاتها واستقرت في مطار « مونرون » ، في « بوينس ايرس » ، وقد ارسلتها شجية النبرة فتاة في قمة الصبا ، يثب بريق الحيوية من عينيها ، في هالة من عذوبة حنون وانوثة آسرة .

وكان لهذه العبارة في جوانحنا هزج الاعتزاز : ان في تقديمنا على سائر رفاق السفر مدعاة للاغتباط الذي ليس بعده اغتباط . وزادها نفاذاً في بعد الاثر وطيب الوقع صدورها عن فتاه من اصل لبناني

تعود بالنسب الى « بكاسين » ، في جنوبي لبنان : تلك هي الدكتورة والطيارة « مرغريت نصر » ، المراقبة في مصلحة الصحة العامة في مطار بوينس ايرس .

نزلنا من الطائرة تحف بنا انظار الركاب تساؤلاً ، ويملأ صدورنا الاعتداد بهذا الاشعاع اللبناني العظيم ينشر رسله وسفراءه في الخافقين ، فيعلون من قدر لبنان ومن قدر كل دار ينزلها لبنان .

*

هل دار في خلد « المغترب المجهول » الاول الذي وطأت قدماه ارض الارجنتين ، لنحو سبعين سنة مرت ، انه سيصبح بعد دورة الفلك هذه جيشاً من اللبنانيين يجاوز عددهم المئة والخمسين الفاً ؟

وهل ساوره يوماً انه سينتشر من بوينس ايرس الى « توكومان » و « كوردوبا » و « كاتامركا » و « ماندوسا » و « سانتافه » و « تشاكو » و « سان خوان » و « خو خوي » ... وسواها انتشار التوغل والوفرة ؟

وهل حسب ان « الكشّة » الشحيحة الضرع ، على ثقل وارهاق ، ستتحول الى مصانع ومتاجر لـيّنة التبعة ، سمينة الغنم ، وان المعول الخشن المجسّ سينقلب الى مزارع سخية الرضى والتيمن ؟

وهل حلم بان عهد شـق النفس والصوق بالتراب سيعقبه عهد آخر فيه للترف والجاه العريض الف موكب وموكب ؟

لا شك في انه لم يكتب لنقطة ابتداء ذلك الماضي السحيق ان تتخطى الجيل والزمن لترى وتشهد هذا المستقبل ـ الحاضر تنعم به

نزالة لبنان في الجمهورية الفضية ، فاذا هي بين نزالاتنا الموزعة هنا وهناك وهنالك طليعة يمن وسعد وعنوان فخر ومباهاة .

بديهي ان المغتربين الاول قد عنوا ، قبل كل شيء ، بتدبر المرتزق لانفسهم حيث اقاموا ولعيالهم المتخلّفة في الوطن ، وبديهي ان يكون انصرافهم الى العمل على ذلك النحو وفي ذلك الاتجاه قد حال بينهم وبين التطلع الى غير التجارة يستدرونها رغداً ، والزراعة والصناعة يخلقون منهما غوثاً ومدداً .

غير ان الافواج التي اعقبت الاجيال الاولى ما لبثت ان عادت الى حقيقتها . فما كادت تبيت على يسر من المعاش واطمئنان الى الغد حتى استيقظ في نفسها الطموح اللبناني الصحيح يحدوها الى حمل المشعل في ظل تراثنا المجيد وتقاليدنا الكبيرة . فأكبّت على التحصيل العلمي ، ثم اقبلت على المساهمة في الخدمة العامة ، فكان لها مؤسساتها الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وكان منها رجال قلم وسياسة وقضاء وادارة لمعوا بمؤهلاتهم وبروا بعرقهم اوفياء مخلصين .

من اقدم المؤسسات الدينية واشهرها في الارجنتين « الرسالة اللبنانية للمرسلين اللبنانيين » في بوينس ايرس ، وقد انشئت عام ١٩٠١ على يدي الابوين يوحنا غصن ومخايل حجار ، موفدين من قبل البطريرك الياس الحويك ورئيس رسالتها العام الاب يوسف مبارك . ولهذه الرسالة الجليلة المآثر مدرسة عنيت طويلاً بتدريس اللغة العربية الى جانب تدريسها اللغة الاسبانية ومطبعة وجريدة هي « المرسل » الغراء .

ولمعظم الطوائف المسيحية كنائس في العاصمة وفي مدن الولايات الرئيسية .

اما المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية فليس من الهيّن احصاؤها احصاء وافياً . ومتى علمنا انه قلما يلتقي خمسون او مئة من اللبنانيين في دار غربة دون ان يفكروا في تأسيس نادٍ او انشاء جمعية او اصدار جريدة ... استطعنا ان نتصور كم يمكن ان يكون لنا في ارجاء الارجنتين من الجمعيات والاندية والصحف التي بلغ عددها في حقبة ما، نيفاً ومئة وخمسين جريدة ومجلة ، وكم هو صعب ضبط تعدادها . على اننا لا نغفل ذكر اهمها وفي رأس الصف « الجامعة الوطنية اللبنانية» وهي الجامعة اللبنانية الاولى في الارجنتين . ظهرت الى الوجود في ١٨ تموز ١٩٣٦ وتفرعت فروعها في مختلف انحاء البلاد ، وخدمت ـ ولا تزال تخدم ـ القضية اللبنانية خدمة نصوحاً . وبفضل حملتها المنظمة سنة ١٩٣٧ ، وبناء على تفويض رسمي من حكومة لبنان ، اسست دائرة خاصة واوفدت ٣٢٠ مندوباً الى معظم الولايات الارجنتينية فتمكنت من تسجيل ثلاثين الفاً من المغتربين الذين اختاروا الجنسية اللبنانية عملاً باحكام معاهدة « لوزان » .

ومركز الجامعة في « البيت اللبناني » ، وهو نادٍ فخم ، انيق ، في اجمل احياء العاصمة .

ومن هذه المؤسسات : « المستشفى السوري ـ اللبناني » و « النادي السوري ـ اللبناني » و « المصرف السوري ـ اللبناني » و « الغرفة التجارية السورية ـ اللبنانية » ... وغيرها وغيرها . ورب

سائل يسأل عن سبب هذا الازدواج في التسمية . فتعليل ذلك هو ان ابناء البلاد ـ في الارجنتين وفي سواها من ديار الاغتراب ـ كانوا يحقرون المغتربين ، لبنانيين كانوا او سوريين ، بان يطلقوا عليهم اسم « توركو » . وتضامن المغتربون ، دفاعاً عن الحق والمصلحة وتدعيماً لجبهة الدفاع ، فعرفوا انفسهم « باللبنانيين ـ السوريين والسوريين اللبنانيين » . ودام هذا المزج حتى السنوات الاخيرة . وفي بدء العهد الاستقلالي الجديد اخذ الفرق بين لبنان وسورية وبين اللبناني والسوري يتضح في اذهان المغتربين اولاً وفي اذهان سكان مواطن الاغتراب ثانياً .

اما الرجال الذين لمعوا في حياة الارجنتين الوطنية والسياسية فكثر ، منهم النواب في مجلس الامة امثال « خوسه نخري » و« رشيد عجوب » ، و « انخل اسكيا » ، و « فيسنتي سعـاده » وقد كان ـ قبل ان تسوء العلاقة بينه وبين الجنرال « بيرون » ، سيد البلاد ـ رئيس الكتلة الحكومية في مجلس الشيوخ ، وساعد بيرون الايمن ، وصاحب الامتياز الذي قلما يظفر بمثله مقرّب الا وهو امتيـــاز الاشتراك في جلسات مجالس الوزراء .

ومنهم الاعضاء في مجالس الولايات امثال خليل فاضل رئيس مجلس « كاتامركا » ويوسف فاضل وفارس نصار وانطونيو سعـاده الاعضاء في المجلس الآنف الذكر ، وانطونيو نخري العضو في مجلس توكومان ، ولويس عطاالله العضو في مجلس ولاية كوردوبا ، ولويس سالم العضو في مجلس ولاية « سنتياغودل استيرو » ، وتيوفيل نعيم

العضو في مجلس ولاية بوينس ايرس ...

ومنهم الحكام والموظفون الكبار امثال : ليندارو تشيمس (شماس) وزير المال في ولاية « انتيري ريوس » ، الفرد مقصود وزير المال في ولاية توكومان ، الياس امادو (حبيب) وزير المال في ولاية سان خوان ، وفيكتور مارون المستشار القانوني لحكومة ولاية بوينس ايرس ...

وهذا عدا العشرات والمئات من اللبناني الاصل العاملين في دوائر الحكومة والمجالس البلدية في وظائف عالية وهامة .

وقد بلغ من رسوخ نفوذ مغتربينا السياسي في الارجنتين ان اساطير وروايات تحكى عن حوادث لهم جد طريفة . منها - وهذا حادث حقيقي كان له صداه في البلاد - ان معظم اعضاء المجلس البلدي في « تشومتشا » ، من اعمال ولاية كاتامركا ، كانوا سنة ١٩٣٩ من اللبنانيين . فخطر لهم ، تأثراً بشرعة الكثرة والقلّة ، ان يتناقشوا باللغة العربية . واخذوا في الواقع يتخاطبون في الجلسات الرسمية بهذه اللغة الى ان ضج زملاؤهم الارجنتينيون منهم ورفعوا الشكوى الى المراجع العليا . واستعظمت صحافة البلاد الامر فارغت وازبدت ، وكان لا بد للحكومة المركزية من ان تتداخل ، فاقنعت الكثرة بالعدول عن التناقش بالعربية الى التناقش بالاسبانية ، لغة البلاد الرسمية .

ومن الادلة الساطعة على المنزلة التي للبنانيين في الارجنتين ما بدر من الجنرال بيرون يوم جاء يرد الزيارة للاستاذ يوسف السودا ، وزير

لبنان المفوض في البرازيل ، في « البيت اللبناني » ، في بوينس ايرس فقد وقف قائد الارجنتين عند بلوغه عتبة البيت ، والتفت الى حرسه قائلا : « دعوني ادخل وحدي ، فانني هنا في بيتي » .

وكم كانت ممتعة تلك المقابلة التي جرت لنا مع الجنرال بيرون عندما اخذ يشيد بامتزاج اللبنانيين بابناء الارجنتين امتزاج الاخلاص والحب ، وبمكرماتهم المجدية في خدمة وطنهم الثاني .

وما اصدق ما هو انطباق كلمة الدكتور « ميلو » ـ وهو احد وزراء الداخلية السابقين ـ على الواقع اذ يقول : « انني اعبر عن عواطف رئيس الجمهورية وآرائه عندما اعلن اننا نقدر حق القدر اعمال الشعب اللبناني في الارجنتين . ان اللبنانيين قرنوا اتعابهم باتعابنا ، وكانوا امس ، وهم اليوم ، وسيظلون غداً من مكوّني قوى الارجنتين ومعززي نجاحها وازدهارها » .

*

قد انسى اشياء كثيرة ، وقد تمّحي ذكريات عديدة ، الا انني ما نسيت ولن انسى صوتك ، يا فتاة بكاسين ، وقد ارتفع في صقع ناءٍ عن لبنان يرحب باخوان لك من لبنان ، ويذكر بما للبنان في المشارق والمغارب من قصور شاهقة شادتها اكواخ متواضعة من عندنا : من لبناننا الخالد !

خطوط وعناوين

لو لم اكن الاسكندر لوددت ان اكون ديوجينوس

[الاسكندر]

عندي ان « بوينس ايرس » ، اي « الهواء الطيب » ، لم تستحق اطلاق هذا الاسم عليها في شهري تموز وآب .

في هذين الشهرين – وهما في صميم فصل الشتاء في الارجنتين– لا يبقى من « الهواء الطيب » في بوينس ايرس سوى الاسم وحده . فالضباب الذي يكاد يكون مزمناً ، والرطوبة المتثاقلة غالباً حتى درجة المئة في المئة ، والبرد اللاسع بوخز لا يصدّ ، والمطر المتساقط رذاذاً ناعماً مشوباً بعكر « النهر الفضي » الضارب الى الاحمرار ، والفضاء العبوس تستسلم اليه المدينة على كره ويأس ... كل هذه ليست في شيء من أسباب « الهواء الطيب » ولا من عناوينه .

في داخل مصب « النهر الفضي » ـ ريو دي لا بلاتا ـ وهو اعرض مصب نهري في العالم ينفرج الى ما يزيد عن المئتين من الكيلومترات ـ تمتدعاصمة الارجنتين على اربعة عشر كيلومتراً طولاً ، وتتسع عرضاً على مطرح اثني عشر كيلومتراً ، في طابع تنسيقي خاص بها . فاجزاؤها منقسمة الى مربعات توشك ان تكون كلها من قياس نموذجي موحد هو نحو المئة متر طولاً في نحو المئة متر عرضاً للمربع الواحد .

حتى ان المسافات في المدينة ، وفي غير بلد من بلدان الاميركتين الجنوبية والوسطى ، تقاس بالمربعات لا بالامتار ، فيقال مثلاً : طول هذا الشارع كذا وكذا مربعات ، وبين هذه النقطة وتلك كذا وكذا مربعات ...

وبفضل هذا التنسيق تنبسط الشوارع خطوطاً مستقيمة قلما تقع العين فيها على اعوجاج او انحراف . وعندما ينظر المرء الى بوينس ايرس من الجو يخال انه ازاء رقعة من رقاع الشطرنج على تنوع في الالوان واتساع في المساحات . واهم شوارعها « نويفو دي خوليو » ـ اي التاسع من تموز ، عيد استقلال البلاد ـ وعرضه يقرب المئة من الامتار . ومما تجدر الاشارة اليه ، في معرض الكلام على الشوارع الفسيحة والبنايات الضخمة ، المنافسة الصامتة القائمة بين البرازيل والارجنتين حول ايهما تسبق الى الاستئثار « بالاكبر والاوسع والاضخم » وما الى هذه المصطلحات من مطلق افعل التفضيل . وما شارع « نو يفو دي خوليو » في بوينس ايرس وشارع « جيتوليو

فرغاس » المنبسط بعرض التسعين متراً تقريباً في ريو دي جانيرو سوى مظهر من مظاهر تلك المنافسة .

وفي عاصمة الارجنتين عدد لا يستهان به من المباني الفخمة تأتي في مقدمتها : دار مجلس الامة ، ومسرح « كولون » ، اي كولمبس ، والكاتدرائية حيث النار الدائمة امام قبر «سان مارتينو» محرر البلاد ، ومدرسة الحقوق الجديدة ، ودار البريد ، والمصرف الاهلي والملعب الرياضي ...

وبين شتى البنايات الجميلة والكبيرة في ساحة « ٩ نوار » يلطو بيت صغير ، متواضع ، يرجع تاريخ بنائه الى ابعد من مئة وخمسين سنة مضت ، ذلك هو البيت الذي وقف « ريفا دافيا » ، اول رئيس للجمهورية ، على شرفته ، لنحو مئة وخمس واربعين سنة خلت ، واعلن استقلال الارجنتين . وهذا البيت باقٍ كما كان عهدذاك ، تحافظ الامة عليه محافظتها على اغلى كنوزها القومية . ومن دواعي الاتعاظ ان يكون له في نفوس ابناء الشعب شعور الحب والاجلال الذي كثيراً ما تحرم عذوبته قصور الضخامة والفخامة .

ومن ميزات دار « الكونغرس » ـ مجلس الامة ـ فضلاً عن روعة الهندسة ووشي التأثيث وبديع النقش والرسم ، مَهره باجهزة كهربائية يجري الاقتراع بواسطتها ، باثناء انعقاد الجلسات ، بمنتهى الدقة والسرعة والوضوح .

ومسرح «كولون» من اكبر المسارح ومن اكملها اتقاناً ورواء. شيد عام ١٩٠٨ ولا يزال منذ ذلك التاريخ حتى اليوم ييسر لابناء

العاصمة وضيوفها المتعة الادبية الشائقة . والجوقات التي تدعى الى العمل فيه من اعظم الجوقات العالمية . وقد تسنى لنا ان نقضي فيه سهرة عامرة شهدنا باثنائها مسرحية « التروبادور » لمؤلفها « كامارانو » وموسيقيِّها « فردي » تمثلها جوقة « جيغلي » الايطالية ، فكان انسجاماً اخاذاً بين الروح والاطار ، بين الحضور والمسرح ، وكانت مناسبة حُكم فيها للارجنتين بتذوق الفن الرفيع تذوق العارف القادر .

وللرياضة في نفوس سكان العاصمة هوى واقبال . ومن اجل هذا اقاموا الملاعب والاندية عظيمة ، متنوعة ، على متناول مختلف الميول والاذواق . والملعب الكبير يستوعب ما ينيف على المئة الف شخص .

وكثيراً ما يجاوز عدد المتفرجين في مباريات كرة القدم الخمسين او الستين من الالوف . وفي بعض المباريات الهامة لا يقل الدخل من مبيع اوراق المباراة الواحدة عما يعادل الثلاثمائة الف ليرة لبنانية (ستمائة الف « بيزوس » في شتاء ١٩٤٨) . ولكبار لاعبي كرة القدم مرتبات وجعالات قد لا تكون لرؤساء الجمهوريات والوزارات في كثير من الدول . فاللاعب من هؤلاء يتقاضى مرتباً شهرياً يبلغ في بعض الاحيان العشرة آلاف ليرة لبنانية . واذا انتقل هذا اللاعب من فريق اول الى فريق ثانٍ مثلاً تقاضى من الفريق المنتقل اليه ، عدا مرتبه ، جعالة ليست دون الخمسين الف ليرة لبنانية ، هذا مع العلم ان الفريق الثاني يكون ملزماً في الوقت نفسه بان يدفع للفريق الاول تعويضاً لا يقل عن الخمسين الف ليرة لبنانية .

خير ما تمتاز به بوينس ايرس ، وهي الملقبة بباريس اميركا ، وجهها النظيف النظيف . فانها ، بالرغم من ازدحام الثلاثة ملايين نسمة فيها - وهذا العدد يشكل خمس سكان الارجنتين - تكاد تكون انظف مدن العالم وانقاها رائحة واحرصها على التمسك بقواعد النظافة وقوانينها .

وللعاصمة ، على صرامة انظمة الآداب العامة المعمول بها ، حياة ليلية زاهرة تضفي عليها وشاحاً باريسيّ النسج والصباغ والعطر . فالمراقص ومسارح المرأة والخمرة والموسيقى موفورة وممتعة ، وانما وراء سدود وقيود تذلّ عندها كبرياء الاباحية كسيرة الطرف ، مقلّمة الاظافر .

... كثيرة هي ، ولا شك ، مفاخر الارجنتين وعاصمتها . بيد ان مفخرتهما الاولى اليوم انما هي جريدة « لابرانسا » . فهذه القوة المسيطرة في دنيا الصحافة تشكل و « نيويورك تايمس » في نيويورك ، ومؤسسة « كامزلي » في مانشستر ، الثلاث المنشآت الصحفية الاولى في العالم من حيث عظمة الأُهبة والعدّة ومن حيث الكثير من عظمات الصحافة بدون تعيين ولا تحديد .

وترفع « لابرانسا » - بما بين يديها من امكانات وبما وراءها من ماضٍ مجيد - فوق هامة بوينس ايرس ، بل هامة الارجنتين ، بل رأس صاحبة الجلالة الصحافة اطلاقاً ، تاجاً من المع التيجان ومن ابقاها على الدهر . انها معقل من معاقل حرية الفكر والقلم . انها جريدة تبني مجد امة !

في الطريق الصاعدة

لا يهمني الا اكون شيئاً في بلادي اذا كانت بلادي شيئاً في بلدان العالم

[تيير من رؤساء جمهورية فرنسا]

اول مصباح ينوّر في مكاتب « القصر الوردي » ـ سراية الحكومة ومقر رئاسة الدولة ـ في ساحة « ماجو » في بوينس ايرس انما هو مصباح ديوان « الجنرال خوان دومينغو بيرون » ، سيد الارجنتين ورئيس جمهوريتها .

وآخر مصباح ينطفىء في تلك المكاتب انما هو مصباح مكتب الجنرال بيرون .

ينهض الارجنتيني الاول من النوم باكراً جداً . ولا تدق الساعة السادسة صباحاً ، اي قبل شروق الشمس بساعة وبعض الساعة في فصل الشتاء ، حتى يكون في ديوان عمله . فيعقد مجلس الوزراء ـ اذا كان

من داعٍ الى عقده ـ ثم يباشر اعماله اليومية من عادية وغير عادية ، مكباً عليها حتى الظهر ، فينقطع عنها نحو ثلاث ساعات ليستأنفها بعد ذلك ، ماضياً فيها حتى التاسعة او العاشرة ليلاً .

نشأ الجنرال بيرون نشأة عسكرية صلبة التوجيه ، فنقل معه ، بانتقاله الى رئاسة الدولة ، كل ما في الحياة الجندية من حزم وعزم وزخم وانضباط ، ناهيك بالارادة المصممة والرغبة اللاهبة في تأدية الواجب . وكان من الطبيعي ان تتأثر اجهزة الحكم بهذا النهج ، فسارت في الطريق المختط لها والى الهدف الذي رُكِّز في قبلتها .

ومن ابرز خواص هذا النهج توثّب وتطلّع مشربان الى حد بعيد بالعنجهيّة الالمانية . فبيرون ، وقد تخرج في مدارس المانيا العسكرية ، من المعجبين بسمتها العسكري ، ذلك السمت المنتقل الى الارجنتين صارخ الطابع في اوساط الجيش وفي سواها من اوساط شعبية يستهويها فتقبل عليه بين مقتدية موفقة الاقتداء ومقلّدة في تقليدها ضعف التطبع والتشويش .

وتشيع فوق كل هذا كبرياء قومية فيها من الشموخ والتعالي ارفع ذراها ، ومن الدلّ والتتايه غاية امعانهما ، ومن التحفز للغد نزوات في بعضها ما يقرب من نشوة الحلم وضجة الوهم . فالارجنتينيون ، وقد اوتوا الشيء الكثير من امكانات الروح والمادة ، يحسبون انفسهم اصحاب رسالة تجاوز آفاقها القارة الاميركية الى النطاق العالمي الاوسع . ويوم هُدِّدت شمس فرنسا ـ وفرنسا قائدة الشعوب اللاتينية ورائدتها ـ بالكسوف ، في عام ١٩٤٠ ، قام في روع الارجنتين ان من واجبها

ان تخلف فرنسا في القيادة والزعامة ، وان بوسعها ان تلعب الدور الذي تطمح الى لعبه ناجحة ، مشكورة . ولا يزال هذا الاعتقاد يعمل بتعميق وامتداد في نفوس ابناء الجيل الجديد .

*

لنظام الحكم في الارجنتين سمات تقف به عند حد وسط بين السلطة الفردية المطلقة وسلطة الشورى الشعبية . والنظام هذا مستمد النشأة والاطراد من مداخلة الجيش في الشؤون السياسية ، تلك المداخلة التي توشك ان تصبح ظاهرة طبيعية في غير قطر من اقطار الاميركتين الوسطى والجنوبية .

لقد استقبلت الارجنتين حياتها النيابية حوالى السنة ١٨٥٣ وكانت الانتخابات آنذاك بمثابة معارك دموية تكتب الغلبة فيها للفريق الاقوى ساعداً والامضى سلاحاً .

وفي الحقبة القائمة بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩١٢ كان الاقتراع صورياً ليس الا . فالحكومة هي التي كانت تشكل لوائح النواب ، وهي التي كانت ترجح كفة فوزهم بدون اي اكتراث لاي رأي معارض او حزب منافس . غير ان عبث الفئة الحاكمة ذاك لم يحل دون تمتع الشعب بحقوقه المدنية كحرية القول والكتابة والاجتماع والتعليم والعمل . وكان هذا التمتع بالحقوق تلك كافياً لتطوير البيئة والوضع . فلمعت تباشير الوعي السياسي في صفوف الشعب ، وكُرس هذا الوعي تكريساً نافذاً على يد السياسي الارجنتيني الشهير « الدكتور سانس بانيا » ، وقد كان رئيساً للجمهورية في اوائل العقد الثاني من هذا القرن ،

فاصدر قانوناً للانتخابات اكسبها به الصفة الديمقراطية الصحيحة ، فاحترُمت الحريات وعُززت ، وجعل الاقتراع واجباً وطنياً يعاقب المتخلف عن القيام به بالتشهير وبدفع غرامة قدرها ـ في ذلك الحين ـ عشرة ريالات ارجنتينية . وعام ١٩١١ عرفت الجمهورية الفضية اول معركة انتخابية حرة في تاريخها .

وكان « للحزب الراديكالي » عميم فضل في الانتصار لحرية الانتخاب وبعثها وصيانتها . بيد ان ضعف هذا الحزب فيما بعد ساعد على تمهيد الطريق امام ردات الأثرة والطغيان ، فظهرت بشكل فاضح في الولايات النائية حيث كانت مداخلات قادة الجيش في السياسة بقوة السلاح من العوامل الاساسية في قلب الحكام والاحكام . وتواترت الانقلابات وتكررت في غير ظرف وتاريخ ، حيناً « يراق على جوانبها الدم » ، وآونة ضمن حدود « الثورة البيضاء » .

*

سنة ١٩٤٦ خرج الجنرال بيرون من السجن ، حيث كان قد اعتُقل بضعة ايام ، الى قيادة الارجنتين .

وها هو يقودها منذ سنوات خمس ، وحسبه من الحكم والوطنية ان يعطي وطنه كل نفسه وكل كيانه .

وايا كانت نظرات البعض فيه وفي سياسته واساليب حكمه فلا ينتقص ذلك في شيء من شأن الرجل وعظمة عمله ، وهو الحريص على ان يكون للارجنتين استقلال وسيادة يجعلانها في منجاة من ان تُشدّ الى عجلة هذه او تلك من الدول المفطورة على ان ترى في افلاكها

دائماً سيارات وتوابع تأتمر بامرها وتنتهي بنهيها .

وايا كانت آراء البعض الآخر في المصاير القريبة والبعيدة فما من وطني الا يقرّ الجنرال بيرون على سياسته العليا . ولئن يستمر مستقبل الرجل حلقة في سلسلة ماضيه وحاضره فلا شك في ان تاريخ امته سيقعده يوماً الى جانب كبار قادتها من « سان مارتينو » الى « سافيدرا » الى « بلغرانو » وغيرهم وغيرهم من رافعي لوائها عالي المنعة والمهابة .

ان صورة العمل الجليل يحققه الجنرال بيرون تبقى ناقصة الخطوط ، مبهمة الالوان اذا لم نشر الى عمل زوجه « ايفا » ـ او « ايفيتا » كما تفضل ان تُنادى تحبباً ـ فهذه السيدة الموفورة المواهب ، الصاعدة من صميم الشعب الى القمة ، تقطع الدليل على المدى البعيد الممكن ان تصل اليه المرأة عندما تضع قلبها وروحها ومؤهلاتها في خدمة بلادها .

ولدت « ايفا خوان دوارته » سنة ١٩٢٠ في مدينة « لوس تولدوس » الصغيرة ، ووالدها ملاك صغير وامها ابنة حوذيّ . ولم تحب من مناهج الدراسة سوى التمثيل ، وعندما بلغت السادسة عشرة من العمر فرّت من مسقط رأسها الى العاصمة بوينس ايرس حيث اخذت تعمل في بعض المسارح بفضل ما لها من جمال وليس بفضل فنها التمثيلي .

وكانت تعمل في ملهى « راديو بلغرانو » عام ١٩٤٣ حين توثقت عرى الصداقة بينها وبين لفيف من قادة الجيش ولاسيما

« الكولونيل خوان بيرون » ، وفي عام ١٩٤٥ نفضت يدها من العمل المسرحي وزُفّت الى بيرون في احتفال مدني سري لم يلبث بيرون ان جعله علنياً بعد انقضاء شهر ونصف الشهر على الزواج السري .

ان ايفا بيرون ، وهي التي يقول فيها زوجها : « انها تساوي خمسة وزراء بالنسبة اليّ » ، ليست دون رجلها اكباباً على العمل وكفراً بالذات . وساعات اشتغالها بالشؤون الوطنية العامة ، والاجتماعية منها بنوع خاص ، لا تنقص عدداً واهمية عن ساعات عمله . لقد نذرت نفسها لوطنها نذر السماح والتفاني ، وها هي ماضية في وفاء نذرها على ما يزيد مرآتها ، ويزيدها في المرآة ، رواء واشراقاً .

شبّه بعضهم البشرية بطائر ذي جناحين : الرجل والمرأة . واردف ان لا قيام لهذا الطائر بغير صحة الجناحين وتجاوبهما وتعاونهما . وقلما صح هذا التشبيه في مجال مثله في الارجنتين ، حيث روح الحكم في قبضة رجل رجل ، وقلبه في حب امرأة امرأة ، وكلاهما واحد في الشعور والتفكير والتدبير .

قطعت الارجنتين ، حتى اليوم ، مراحل جدّ متقدمة على طريق وثبتها ، ولا تنقضي سنوات حتى تحقق الكثير من امانيها ومطامحها : ان رأس مالها الوطني كبير ، وايمانها بحقيقتها راسخ ، ودربها الى الامام واضحة وممهدة . فعسى الاّ تجري الرياح بغير ما تشتهي السفن !

على الهامش

ان القلب الانساني كبير يسع كل شيء، وضعيف يحطمه ايسر شيء

[غوته]

من قرّ في الدرجة الرابعة تحت الصفر الى حرّ في الدرجة الرابعة والثلاثين فوقه .

من شواطىء « الاطلسي » وعكرها في مصب « النهر الفضي » الى شواطىء « الهادىء » وسكونها العميق الرهيب .

من سهول الارجنتين ومراعيها الغضّة النضرة الى قمم « الاندس » وثلوجها السرمدية الماسيّة السطوع واللمعان .

من بوينس ايرس تكزّ تحت اثقال برد الشتاء الى « بَلْبوا » ، في « بناما » ، تغرق من وما فيها في اتون من حمّارة الصيف الاستوائي ...

تلك كانت بعض الانتقالات الفجائية المتنوعة ، وقد سجلناها

في العاشر من شهر آب ، في فترة من الوقت لم تجاوز السبع عشرة ساعة قضيناها طيراناً بين بوينس ايرس وبلبوا .

... الدقيقة الخامسة عشرة بعد الساعة التاسعة من صباح ذلك النهار قامت بنا الطائرة من مطار « مورون » في عاصمة الارجنتين وهدفنا الاقصى « مكسيكو » .

كانت الطائرة التي تقلنا من عناوين اعتداد شركة « بناميريكان » . كانت من « بيوت السماء » الجبّارة الجامعة بين تيسير اسباب الراحة والايحاء بموجبات الارتياح . كانت تتسع لسبعة وخمسين من المسافرين عدا ربانها ومعاونيه وهم تسعة اشخاص .

وعند الساعة الحادية عشرة والدقيقة الاربعين كانت على علو يزيد عن الستة آلاف من الامتار ، فوق سلاسل جبال « الاندس » الشهيرة ، المخيفة .

ان في جبال « حملايا » قمماً اكثر ارتفاعاً مما في جبال الاندس ، بيد ان هذه الجبال الممتدة من بحر « الانتيل » الى مضيق « ماجلان » ، والمخترقة سبعة من البلدان ، والمتوجة بنحو اربعين قمة ينيّف ارتفاع كل منها على الستة آلاف من الامتار ، ان هذه السلسلة تشكل وحدة جبلية فريدة في العالم بعظمتها وبسطتها وتنوّع اوجهها .

تهادت الطائرة ظهراً فوق تلك الذرى الشوامخ ، فمرت محاذية اعلى رأس فيها ، الا وهو رأس « أكونكاغوا » المنتصب بعلو ٧٣٥٠ متراً . وفي غمرة من نقاء اديم حادّ الزرقة وانصباب وهج الشمس

وميعته على ثلوج تتألق في شعاع دام غاصت النواظر في رؤية هي اقرب الى وهم الخيال منها الى محسوس الواقع ، وانتشت النفوس في سكرات هي بعث مما وراء العالم المنظور .

ودام الطيران فوق « الاندس » وما فيها من تعاقب مشاهد وتلون اضواء نحواً من ساعة ، في بيئة ومدى تقصر كلمة البشر عن توفيتهما حقهما من الوصف والتصوير .

وكانت اولى المحطات « سنتياغو » ، عاصمة « الشيلي » ، القطر المفاخر والبرازيل بانهما البلدان الوحيدان - في الاميركتين الوسطى والجنوبية - اللذان لم يشهدا سحابة قرن كامل ثورة حقيقية جديرة بحمل هذا الاسم .

ومن سنتياغو دخلت الطائرة في منطقة الاوقيانوس الهادىء وآفاقه التي لا يسبر لها غور ، وقد قام على يمين خطها المتبع جبال الاندس معصوبة الجبين بهالات البهاء والسناء .

وطوفنا فوق اراضي « البيرو » الصحراوية الوجه والفراغ ، فقطعنا مئات من الاميال دون ان تقع العين فيها على اثر لذي حياة ، انساناً كان او حيواناً او نباتاً .

وطال التوقف في « ليما » ، عاصمة البيرو ، « مدينة الملوك » على حد بعض التسميات ، ساعة وبضع عشرة دقيقة . ومن هناك انطلقت الطائرة الى « غواياكيل » في « الاكواتور » حيث للارض غضبات لا يُترجم عنها بغير الزلازل وفوران النار .

وبعد وقفة نصف ساعة استأنفنا السفر الى « بلبوا » في بناما ،

فوصلنا اليها الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح اليوم التالي .

وكان علينا ان نقضي في بلبوا ، « مدينة الادغال والافاعي » ، البقية الباقية من الليل . وكانت المدينة في تلك الساعة المتأخرة في اوج عربدة ملاهيها ومراقصها . وتحت وطأة من الحر والرطوبة والمناخ الاستوائي منقطعة النظير كان الساهرون والسامرون والراقصون والسكارى يبيحون لانفسهم الظهور في الساحات والاماكن العامة في ازياء البحر او ازياء النوم ، ولا عتب ولا حرج . وكانت ثورة « ارياس » ضد « دياس » لم تهدأ تماماً بعد ، فرُويت لنا عنها اقاصيص وحكايات شبيهة باساطير الاطفال على عهود بساط الريح وحروب الجن ومغاور علي بابا ...

واجمل ما في بلبوا مطارها الحديث ، وقد وقفت عليه الولايات المتحدة كثيراً مما بين يديها من قوى العلم والمال والتحقيق .

وفي منتصف الساعة الثامنة من صباح الحادي عشر من شهر آب غادرنا بلبوا الى « ماناغا » ، عاصمة « نيكاراغا » ، ومنها الى « سان سلفادور » ، عاصمة « سان سلفادور » ، اصغر بلدان اميركا اللاتينية ومن اغناها بالمرافق الزراعية .

*

من سان سلفادور الى « غواتيمالا » ، عاصمة غواتيمالا ، خمسون دقيقة طيران .

وما انقضت هذه الدقائق الخمسون حتى فوجئنا باعلام مؤداه

ان من المتعذر علينا متابعة السفر الى مكسيكو ، نظراً لرداءة الحالة الجوية في سماء عاصمة المكسيك وللاضرار التي تسببت بها تلك الحالة في مطار مكسيكو نفسه .

واردفت الشركة ، صاحبة الاعلام ، فقالت : « على سائر المسافرين في هذه الوجهة ان يقضوا ليلهم في غواتيمالا » .

كانت الساعة الرابعة عشرة عندما فوجئنا بالخبر . ولم يكن في اليد حيلة سوى الانصياع والتسليم . واغتنمنا الفرصة فقمنا بجولة واسعة في المدينة . ومن الملاحظات الجديرة بان يشار اليها اقتصار البناء في المدينة على طبقة او طبقتين ، اذ ان طبيعة الارض البركانية لا تسعف على تشييد الابنية المتعددة الطبقات ، نظافة العاصمة وانعدام الحركة ليلاً فيها ، اتساق شوارعها في مربعات تكاد تكون متشابهة قياساً ومظهراً ، اناقة داري الحكومة والشرطة وقد بنيتا بحجر رائق المنظر ، كثير الزخرف .

وفي اثناء الليل سمعنا عدداً من الاطلاقات النارية تتجاوب اصداؤها قريبة من النزل الذي كنا فيه . واستفهمنا عن ذلك في الصباح ، فقال لنا رئيس خدم النزل : « تلك كانت نهاية الثورة التي لم تكن قد بدأت بعد » ... والظاهر ان هذه « البدايات » وتلك « النهايات » اكثر من عادية ومألوفة في تلك البلاد .

قامت بنا الطائرة ، صباح ١٢ آب ، من غواتيمالا . وانسابت على مقربة من البراكين الهامدة حالاً والمعروفة باسماء : « جبل النار » و « بركان الماء » ، و « بركان كاتاناغو » . وحطت بنا في منتصف

الساعة الحادية عشرة في مطار « فيرا كروز » ، حيث كان علينا ان ننتقل من الطائرة الكبيرة المتعذر عليها الهبوط في مطار مكسيكو المتعطل الى طائرة صغيرة من طائرات البضعة عشر راكباً .

بين فيرا كروز ومكسيكو طيران ساعة ونصف الساعة سرعان ما طوت الطائرة صفحتهما ، فاذا نحن في ظل حفاوة جالية يطالعك منها ، اول ما يطالعك ، بقاء على لبنانية عريقة في الصلابة والمناعة ، ووفاء للبنان يضعه وحده في كفة من الميزان ويضع الدنيا الباقية باسرها في الكفة الثانية !



كالحلقة المفرغة

اثنان خير من واحد لان لهما جزاء خير عن تعبهما . اذا سقط احدهما انهض صاحبه ، والويل لمن هو وحده لانه اذا سقط فليس احد ينهضه .

[سفر الجامعة ، الفصل : ٤ العددان : ٩ و ١٠]

عام ١٨٨٢ قدم « يعقوب صوما الحصروني » المكسيك ، فكان المغترب اللبناني الاول اليها ، وكان بدء الهجرة اللبنانية في حلقة جديدة من سلسلة متعددة الحلقات .

وما عتمت موجات المغتربين ان اخذت تتعاقب في هذا الاتجاه ، فاندفعت اولاها من جزين ودير القمر وزحله ودوما والبترون ، ثم تلتها موجات من عكار وزغرتا ومزرعة الشوف والنبطيه والشويفات والقرعون وغيرها من دساكر البقاع وكسروان وقراها .

ويوم عصفت الضائقة المالية الخانقة بالولايات المتحدة سنة

١٩٢٩ نزح فريق من مغتربينا هناك الى المكسيك واستقروا .
وظل مدّ هذه الهجرة في ارتفاع وعلى تصاعد الى ان كان عام ١٩٣٢
فاصدرت السلطات المكسيكية قانوناً قاسي الحظر ، ضيّق التحديد ،
فضؤل عدد اللبنانيين المسموح بقبولهم حتى اوشك الا يذكر .

ولو قمنا اليوم باحصاء المغتربين اللبنانيين في المكسيك
وجدنا عددهم يفوق الخمسة والعشرين الفاً بين محتفظ بجنسيته
ومتجنس بالجنسية المكسيكية . وهم موزعون بنوع خاص بين العاصمة
مكسيكو وولايات : « فيرا كروز » و « بوابلا » و « يوقاطان »
و « تامو ليباس » و « جاليسكو » و « دورانغو » و « شهياهيا »...

اما منازع اشتغالهم ومسالك نشاطهم فتكاد ان تكون كلها وقفاً على
الصناعة والتجارة ، كما هي حال الكثرة الغالبة من المغتربين . وعنايتهم
بالزراعة ضئيلة جداً ، واذا استثنينا زراعة الحبوب والقنب وقصب
السكر يعيرها ثلاثة او اربعة اهتمامهم ما وجدنا سوى ذلك اي نتاج
زراعي آخر خليق بالذكر .

ويعمل كبار صناعيينا وتجارنا في العاصمة والمدن الرئيسية
نظائر « بوابلا » و « وادي الحجارة » و « مونتيريي »
و « فيرا كروز » . وبين بعيدي الشأو منهم في دروب النجاح من
ابتنى الدور والقصور باذخة ، غنية . ولا يقل عدد اصحاب الملايين عن
الخمسين مغترباً ممن تتراوح ثرواتهم بين المليون والثلاثين مليوناً من
الليرات اللبنانية .

*

من كلمات شكري الخوري ، ذلك اللبناني الكبير وصاحب جريدة « ابي الهول » التي كانت تصدر في سان باولو ، قوله : « لو كان للقمر طريق لكنت ترى لبنانياً حاملاً « كشته » وصاعداً اليه ، وهو يسمعك صوت مطرقته ، وترى لبنانياً آخر قد شكّ دواته في زنّاره وسار الى القمر لينشىء فيه جريدة او يفتح مدرسة » .

وبقدر ما تنطبق هذه الكلمة على حقيقة المغتربين وواقعهم - ايا كانوا واين كانوا - انطباق الصحة والصدق ، بقدر ذلك تجد لها في صفوف نزالة لبنان في المكسيك شواهد مؤيّدة . فكيفما اتجه اللبناني وحيثما حلّ لا ينسى انه ابن لبنان ، ابن احد مواطن المعرفة الاولى ومن حملة مشاعلها . وما كان لبنانيو المكسيك ليشذ بهم النهج عن هذه القاعدة العامة . فكان لناحية الفكر والحرف بينهم مقامها والمعنون برعاية حرماتها وتعزيز شأنها .

ففي مكسيكو جريدتان لبنانيتان باللغة العربية هما « الفرائد » لخليل نصر وداود الشرتوني و « القسطاس » لفريد سليم ، ومجلة شهرية بالاسبانية هي « الامير » لنجيب عواد ، وهناك مجلة اسبوعية واسعة الانتشار في الاوساط الرياضية اسمها « ايدونديل » لمحررها ومالك معظم اسهمها ابرهيم البيطار . ولالبرتو سمعان ، شقيق نجيب سمعان ، مجلة اسمها « توزوهاس » ، ويدير انطون يوسف الحلو - وهو قصصي معروف - مجلة كبيرة اسمها « سيلكسيونيس » .

اضف الى ذلك جيلاً من المتحدرين فيه كثيرون ممن لهم الباع الطولى في العمل الثقافي والعلمي المكسيكي . فمن متعاطي المهن الحرة

نذكر المحامين : نجيب سمعان ، السياسي الشهير ، وخوري وعواد ، والاطبـاء : لويس فرح من حصرون رئيس جامعة وادي الحجارة ، والحاج وزغيب ونعمه وعزام والخوري ، والمهندس المعماري شفيق القيم ، والمهندسين في الـكيمياء : جورج ديب وسمعان وانطونيو العويس وبدر ونعمه وحرب وشهـاب . ولجورج ديب في وادي الحجارة ستة مصانع للادوية منتجاتها رائجة السوق في مختلف انحاء البلاد . اما الاخوان العويس فهما صاحبا مؤلفـات في الـكيمياء ، ويتوليان تدريس هذه المادة في جامعات المـكسيك .

اما المتفوقون في حقل السياسة والادارة فيأتي في مقدمتهم نجيب سمعان من « عابا » في « الـكوره » ، وقد كان حاكماً لاحدى المقاطعات وانتخب نائباً غير مرة ، ورأس لجنة مجلس النواب ـ وهذه الرئاسة بمثابة رئاسة المجلس النيابي نفسها ـ وفرنسيس سركيس من « عشقوت » وهو نائب عن ولاية فيرا كروز ، والفرد عزيز من « جزين » وهو نائب عن ولاية « شيهياهيا » وكارلوس عطيه من « بـكاسين » وهو رئيس حزب كاثوليكي له شأن ووزن يحسب حسابهما .

ومن كبار رجال الادارة الدكتور جوزف بادوا من « تنورين» وهو امين سر كلية الطب ، ونجيب ابي زيد من « عجلتون » وهو امين السر العام لشرطة مكسيكو .

* * *

للجالية اندية وجمعيات متنوعة الاسماء متقاربة الاهـــداف ،

ان لم نقل موحدتها في الخطوط الكبرى . فهناك « نادي اصدقاء الكتائب اللبنانية » و « الجامعة اللبنانية » ، و « المنتدى اللبناني - المكسيكي » ، و « جمعية بطل لبنان » ، و « الجمعية العكارية » و « جمعية دير القمر » و « جمعية الاوانس اللبنانيات » ... وكل هذه المؤسسات والتكتلات وما يماثلها تعطي فكرة واضحة عن حقيقة تفكير الجالية الوطني وحقيقة مبادئها اللبنانية . ولسنا نغالي اذا قلنا ان جاليتنا في المكسيك من ارسخ جالياتنا ايماناً بلبنان ، ومن اشدها حرصاً على تراثه وبراً بعهوده ، ومن اوفاها اجماعاً على التعلق بشرعته القومية . ومن المتعذر جداً على المستقصي ان يسمع في صفوفها نغمة واحدة ناشزة او صوتاً واحداً نابياً . فالجمهرة اللبنانية هناك على قدر البقاء اللبناني حق قدره ، وعلى الدين بعقيدة تنسجم ورسالة لبنان منذ قام وطناً للحريات ومنارة من منائر الخير والحق والحب .

وليس هذا بواقع الاجيال القديمة فحسب ، بل ان الاجيال المتحدرة والطالعة عينها تنتظم في هيئات وتكتلات ، « كمجعية الشبيبة اللبنانية » تتعصب للبنان ، كياناً واستقلالاً ودوراً في خدمة الحضارة ، بقدر ما تتعصب للوطن الذي ابصرت النور تحت سمائه .

ومن الطبيعي - والحال على ما هي عليه - ان تكون نقمة الجالية على المتنكرين لحقوق المغتربين من اعنف ما للنقمة والسخط من أعراض وبوادر واستعدادت . فمغتربونا في المكسيك على اهبة « لكل شيء » ، انتصافاً من حكومات لبنان . ولا يقف بهم عن الاندفاع حتى حدود التهور الا تصرف واحد : الا وهو إشعارهم

بانهم كانوا ولا يزالون من اعمدة البيت ، وبان لهم ولاخوانهم المغتربين من هذا البيت صدره ، كل صدره .

*

جاء في « سفر الجامعة » : «اثنان خير من واحد لان لهما جزاء خير عن تعبهم . اذا سقط احدهما انهضه صاحبه ، والويل لمن هو وحده ، لانه اذا سقط فليس احد ينهضه » .

فعسى ان يجدي التذكير !



ارض وشعب

ان اعلان الحقيقة مفيد لمن تقال له لكنه ضار بمن يقولها
[باسكال]

يقول « جون غونتر » في فصل من مؤلـّفه « اميركا اللاتينية » وقفه على المكسيك : « ان مأساة المكسيك الكبرى هي ان يعيش شعب في اقصى درك من الفقر على ارض هي في الذروة من الغنى » .

تأتي هذه الصورة بين الصور الموفقة الاداء في كتاب الصحافي الاميركي الجوّابة ، وتشهد على واقع حال يألم له وطنيو المكسيك ويطالع الغريب في مقدمة ما يطالعه من احوال تلك البلاد .

وانه لمنتهى التناقض ان يكون الشعب المكسيكي الموصوف برهافة الحس وزخم الحيوية وحدّة الاندفاع في مواطن ومواطن عزوفاً عن الدأب والسعي الى الحد الذي يجعله مضرباً للمثل في التواكل والتراخي .

وانه لمنتهى التناقض ان تكون التربة المكسيكية الزاخرة باغنى المعادن كالنفط والحديد والفضة والذهب اما مهملة واما موكولة الاستثمار الى غير ابناء البلاد بحيث لا يفيدون منها الا النزر اليسير او ما هو دون النزر اليسير .

وانه لمنتهى التناقض ان يكون المكسيكي القوي الساعد ، السريع الانتفاضة ، ضعيف الجلد ، هزيل الجهد في جبهه مقتضيات المرتزق .

في كتاب « تاريخ المكسيك » لمؤلفه « هنري بامفورد باركس » ما يلي :

« يرجح ان يكون منشأ الانسان في سهول آسيا المرتفعة . ومن هناك انتشرت ذريّاته في العالم ، في موجات من المهاجرة هائلة ، وهي اما مقسورة على النزوح بدافع الجوع واما مدفوعة بعامل حب الاكتشاف ... وثمة حركة قامت بها تلك الشعوب باتجاه الشرق قادتها من مضيق « بيرنغ » الى القارتين الاميركيتين فاستعمرتهما . وفي الوقت نفسه ، وبحركة نزوح مختلفة عن الحركة الاولى ، توجهت قبائل اخرى الى الغرب بالتتابع ، منصبّة في اوربا او شمالي افريقيا حول البحر المتوسط . وسحابة عدة آلاف من السنين وقف تقدمها عند تلك الحدود . ثم في سنة ١٤٩٢ للميلاد اخذت تلك الشعوب تجتاز الاوقيانوس الاطلسي ، وكان على تيّاري الهجرة ان يلتقيا ويمتزج احدهما بالآخر في جانب الكرة المتعارض ونقطة انطلاقهما . وتاريخ هذا الامتزاج هو تاريخ المكسيك وسائر شعوب اميركا

اللاتينية الاخرى » .

تعد المكسيك اليوم نحواً من اثنين وعشرين مليوناً من السكان . والمكسيكي ، بوجه عام ، ذكي جداً وموهوب جداً لتذوق الفنون ، وهو يحب الارز والمآكل الحرّيفة والاعياد القروية والملابس الزاهية ، ويكره التبذير والجبن ودقة التقيد بالمواعيد . وهو وارث حضارة قديمة انتهت الى انطفاء .

يعيش الفريق الاكبر من المكسيكيين عيشة الاعتماد على المصادفة والاتفاق . وتعنى السلطات عناية شديدة بتحويل الشعب عن « تقليد » مزمن يوشك ان يردي الامة في مهاوي الضعضعة والتقهقر . ومن حسن الطالع ان يقوم الى جانب الفئات المتواكلة والمستسلمة الى مشيئة القضاء والقدر فئات ناشطة تحاول ان تعوض البلاد بعضاً مما لها من حقوق وديون في الذمم والاعناق .

ثلاث خواصّ تطبع حياة المكسيكيين بطابعها المميز : شدة التدين والتعبد ، تعشق الموسيقى والانقطاع اليها ، الشغف بصراع الثيران شغفاً هو الجنون او بعض تخومه .

اما شدة التدين والتعبد فصارخة الاثر في كل ما يمت الى الدين بصلة : فالكنائس من الكثرة في العدد بحيث تفوق نسبياً عدد الكنائس - من قبيل المثال - ان في قرية « شالولا » - وهي قرية لا يزيد عدد منازلها عن المئتين والخمسين منزلاً - ثلاثمائة وخمساً وستين كنيسة . وثمة كاتدرائيات احيطت من اتقان البناء والزخرفة بما يجعلها مضاهية اعظم الكاتدرائيات العالمية . والداخل الى

كنائس المكسيك يشهد فيها ازدحاماً وخشوعاً وتقوى قد لا تكثر نظائرها في غيرها من المعابد والهياكل . وبالرغم من محاولة السلطات ، في بعض الحالات ، الحدّ من حريات العبادة ونشاط رجال الاكليروس ، فان لهؤلاء الرجال نفوذاً ماضياً ترهبه اقوى السلطات وتقف منه موقف المسالم المسترضي .

اما الموسيقى فانها روح الشعب المكسيكي وغذاؤه في كل ظرف من ظروف حياته . انها متعته الاولى والفضلى ، انها ملء خياله وجنانه ، يفزع اليها في سرائه مثله في ضرائه ، وينشدها في سمر حبه مثلما ينشدها في مهرجانات خمره وناره . فالعاشق الولهان يستعين بها في لياليه ليخاطب معشوقته باللغة التي ليس ابلغ منها لغة . والاستقبالات والمآدب والاجتماعات تظل مفتقرة الى الدم الاقوى يهز شرايينها ان لم يكن فيها لارنان الوتر وطنين النحاس منابر مورقة الاعواد .

وفي الموسيقى المكسيكية كثير من انفاس الصوفية الشرقية وكثير من جلجلة المادية الاميركية وقد تساوقت هبّاتها في انسجام وتجاوب يذهب لها في النفوس انفلات التمرد وهتاف البشرى .

واما صراع الثيران فانه اللذة الحارة ، الآسرة لا يقايضها المكسيكي بلذات الحياة على انواعها . وحفلات الصراع ومواسمه مباهج اعياد ومواكب اعراس قلما تعرف الاعياد والاعراس زهواً كزهوها وحمّى كحمّاها . وابطال الصراع آلهة او انصاف آلهة تفتح بوجه شهرتهم الابواب المستعصية ، وتعنو لرغباتهم الارادات التي

لا تلين . وهم من الشعب ، في الحل والترحال والتجوال ، في ارفع ذروة يجوز لطالب تكريم او مستحقه ان يحلم بها او يطمع فيها . وان المكسيكي ليستهين بيع قيصه عند الاقتضاء ليستعين بالبدل على دخول ميدان الصراع .

*

مجالي البهجة والجمال في المكسيك وفيرة ومتنوعة ، غير ان العاصمة – وهي الجاثمة فوق بحيرة مجففة وعلى علو الفين واربعمائة من الامتار عن سطح البحر – تأتي خير عنوان لما في المكسيك من بسمات تلك المجالي .

انظر الى مكسيكو من اي جهة او مقلب تختار تجد المدينة وكأنها حديقة كبرى انتثرت فيها الدور والاسواق والشوارع . وهذه الوفرة من الاشجار والجنائن ، تفيء العاصمة الى طراوة ظلالها تبعد عن المدينة كل صورة من صور التراكم والتجهم المألوفة في المدن العظمى . ومما يلفت النظر شارعان كبيران هما شارعا « لاريفورما » و « الانسيرخنتس » ، فانهما من اجمل الشوارع في العالم رونقاً وتنسيقاً .

وفي غربي العاصمة حرج بعيد الشهرة ، هو حرج « تشابولتيبيك » . وقد شيد فيه نائب الملك « ماتياس غالياس » سنة ١٧٨٤ قصراً يعرف باسم « قصر تشابولتيبيك » . وعني رؤساء البلاد بالحرج والقصر ، على مر السنين ، عناية جعلتهما من ابهى ربوع الاقامة الطيبة .

ومن اطرف الحوادث التاريخية واقدس الذكريات القومية عن هذا القصر مصرع « الفتيان الستة الابطال » ، وقد استشهدوا عام ١٨٤٧ دفاعاً عن الحرية والكرامة . واستشهد آخرهم بعد ان التف بالعلم المكسيكي ، واصبح الشعب يحيط ذكراهم باجلال البطولة وتقديس الشهادة .

*

في نيسان ١٥١٩ نزل « فرنان كورتيس » الاسباني ، وهو من وجوه التاريخ الشهيرة ، حيث تقوم اليوم « فيرا كروز » ، وكان معه ٦٣٢ رجلا و١٦ حصاناً جاء يغزو بهم المكسيك . وقد فعل ما فعله طارق بن زياد من قبل ، فاحرق المراكب ليحول دون تراجع اي رجل من اعوانه . وكان مقصده ومطمحه ان ينشىء دولة اكثر من ان يجمع ثروة . وفي ذلك التاريخ البعيد وفق كورتيس الى تحقيق بغيته وانشأ الدولة التي حلم بانشائها . فوطد اركانها بعد حروب وغزوات دامت نحواً من خمس سنوات ، في ظل من القسوة والحيلة ذهبتا مثلاً من الامثال .

واليوم ، بعد انقضاء اربعة قرون على كورتيس ، تجد دولة المكسيك نفسها في القرن العشرين ضمن النطاق عينه الذي احاق بنشأتها . انها تقوم على اساس ثورة بوشرت سنة ١٩١١ ولا يزال نظامها ونهجها هما اللذان يقودان خطى البلاد . فعسى ان تكون هذه الخطى الى سداد وفلاح !

نشوة الدم

ان قهر النفس مطلب اصعب كثيراً من قهر العالم بالسيف والنار

[غندي]

أن تزور مكسيكو دون ان تشهد صراع الثيران كأن تمر مثلاً بريو دي جانيرو دون ان تتملى روائع « الكوركوفادو » و « جبل السكر » ، او بنيويورك دون ان تقف عند « الامباير ستيت » و « جسر واشنطن » و « تمثال الحرية » ، او بباريس دون ان يلفتك « برج ايفل » و « الشانزيليزه » ...

دعينا ذات يوم الى مشاهدة احدى حفلات الصراع في ميدانه الكبير ، وقد بناه ، في ظاهر المدينة ، لبنـاني معروف هو نجيب سمعان من « عابا » في الكوره ، فجاء آية في عظمة البناء ، تستوعب مقاصيره ومدارجه نيفاً واربعين الفاً من المتفرجين .

دخلنا الميدان من احد ابوابه العديدة ، وما كدنا نستقر في

اما كننا ونجيل الطرف في من وما حولنا حتى رأينا انفسنا في صميم مقام ومناخ هما مثار للدهش ومدعاة الى الاكبار : ففي نقطة الدائرة حلبة مستديرة فسيحة مسورة بسور خشبي قليل الارتفاع له بضعة ابواب . ومن وراء السور تتدافع وتتعاقب مدارج لا يدركها حصر ، وقد ازدحمت فوقها جماهير الناس بكثافة عدد تشيع في المكان والزمان وحياً مبهماً من تهيب وذهول . وتتعارض الازياء والالوان تعارضاً نافر الخطوط ، ضاحكها في معظم الاقسام ، فاذا هناك لوحة كمخططات الجغرافيا تمتاز عن المخططات بما فيها من حياة جياشة بالحس والحركة . ويختلط اللغط واللغو في همهمة هادرة حيناً ، وفي جلجلة مرغية ، مزبدة حيناً آخر ، فيخيل الى الرائي والسامع انهما في ظل يوم البعث ، في ميعة هرجه ومرجه .

ويُعلن بدء الصراع ، فتعزف الموسيقى لحناً شجياً فيه صخب وفيه عربدة . ثم يفتح باب في صدر الحلبة ويخرج منه موكب المصارعين بفئاتهم الثلاث : فئة « الطوريرو – وهو المصارع الاصيل – وفئة « الماتادور » – وهو المصارع المعاون – وفئة « البيكادور » – وهو المصارع الذي يمتطي جواداً . وعلى هذه الفئات الثلاث ان تعمل دائماً معاً متعاونة ومتساندة في كل صراع .

سار الموكب وفي طليعته الطوريرو ووراءه الماتادورس – جمع ماتادور – وعددهم ستة ، فالبيكادورس – جمع بيكادور – وعددهم اربعة ، واعقبهم نفر مع عدد من البغال مهمتهم جر الثور الصريع الى خارج الميدان في نهاية كل من الاشواط .

سار الموكب ، وهو على هذا الوجه من الانتظام، واخذ يطوف في الحلبة وسط عواصف من التهليل والهتاف والتصفيق طويلة النفس وقد خرجت من الوف الحناجر والوف الاكف وبودها الا تنتهي عند حد . وتناثرت عند قدمي الطوريرو باقات الزهر والمناديل الحريرية والقبعات على انواعها ، وفي كثير منها ترجمان عما في صدور الحسان من شعور القدر والاعجاب والتولّه .

وانسحب الموكب من الحلبة ، ولم يبقَ فيها سوى الطوريرو وقد شغل ، الى حين ، برد التحية ذات اليمين وذات اليسار .

وتعزف الموسيقى ثانية ، ثم يُفتح باب في بعض جوانب الحلبة ، فيندفع منه ثور وقد اختير - عملاً بقاعدة الصراع - من الثيران الضخمة والقوية . فيصول ويجول ويدوّم في كر وهجوم وانصباب ، هائل المنظر ، رشيق النقلة ، سريع الانقضاض . ويحاوره الطوريرو لحظات ثم يخلي له الساحة منسحباً الى وراء احدى الدروع الخشبية الموزعة في انحاء الحلبة .

ويقبل عندئذ اثنان من البيكادورس وبيد كل منهما رمح حاد السنان ، وقد امتطيا جوادين عصبت اعينهما بعصابتين حمراوين ودرعا بدرعين من الفلين الصفيق وعروض الجلد السميك . ويأخذ الفارسان في مصاولة الثور الى ان يتمكن احدهما من طعنه في اعلى ظهره الى جهة الرقبة طعنة تلهب غضبه وتذكي هياجه وتكون الغاية منها شل الحيوان عن رفع رأسه وقرنيه الى اعلى . وبعد هذا يغادران الحلبة ، تاركين الطوريرو والثور وجهاً لوجه . وكثيراً ما تعجز الدرع عن وقاية الجواد

فتصيبه نطحة جامحة تبقر بطنه وتدلق احشاءه وتقرب بينه وبين المهوى الاخير .

وينبري الطوريرو ، ومن حوله بعض الماتادورس ، الى منازلة الثور الهائج ، وسلاحه وشاح احمر يحركه بلباقة وحذر . وينقض الثور على الوشاح ، وقد استفزه اللون الاحمر ، تارة من اليمين وتارة من الشمال ، والمصارع ثابت او شبه جامد في مكانه ، يداور برفق واحتراس في دائرة جد ضيقة . والمصارع المتفوق هو الذي يطيل المحاورة والمداورة اكثر من سواه .

وتنشب المعركة بين الحنكة والرعونة ، بين العقل الواعي والقوة العضلية العمياء ، وحياة الطوريرو عرضة في كل لحظة ، بل في كل ثانية ، بل في كل جزء من ثانية ، لضربة الموت القاضية . واذا اوجس خطراً في النزال بادر بعض الماتادورس الى نجدته بتحويلهم هجمات الثور وكراته عن هدفها الرئيسي ، ريثما يكون المصارع الاصيل قد استعاد صفاء ذهنه وكامل تأهبه فيعود سيرته الاولى .

وبعد جولات تكون قد ذهبت ببعض قوة الثور يقدم ثلاثة من الماتادورس على غرز ست حراب في اعلى ظهره الى جهة الرقبة ، فيغرز كل منهما حربتين بكلتا اليدين وبمنتهى الحذق والرشاقة والدقة . وحدث ، عندئذ ولا حرج ، عن ثورة الحيوان وصولاته . فيتحول الى كتلة جبارة من الانفلات والبطش . وتسكره رائحة دمه الساخن ، فتضج حمى غضبه التهاباً ، ويشتد انصبابه على الطوريرو حقداً وضغطاً .

ويدور العراك سجالاً . ويستمر الى ان تهن قوى الثور فيسيل اللعاب من شدقيه ، ويجمد النور في عينيه ، ويدركه العياء والتلاشي ، وتثقل نقلته وحركته ثقلاً قريباً من الجمود ، فيرسل ، بين حين وآخر ، خواراً عريضاً اجش يقع في الآذان وقع الحشرجة الناعية . وهنا يتقدم الطوريرو ليسدد الطعنة القاتلة بحربة رقيقة النصل يغرزها حتى المقبض في مؤخرة رأس الثور ، فيتلجلج خواره ، وتصطك قوائمه ، ويتهاوى على الارض المخضبة بالدم فراغ وجود وبرودة فناء .

ويسرع بغلان لجر الثور الى خارج الحلبة ، بعد ان يكون احد الماتادورس قد سدد اليه ضربة الاجهاز . وذلك على انغام موسيقى تحز في حلقها الحان الموت ، وعلى جلبة جماهير سكرت بفوح الاحمر القاني .

وتتناثر من جديد عند قدمي الطوريرو ، وهو يطوف في الحلبة شاكراً ، القبعات وباقات الزهر والمناديل الحريرية والتقادم اللطيفة ، فيجمعها احد الخدم مثله عند اطلالة الموكب قبل الشروع بالصراع . وغالباً ما تنطوي الباقات والمناديل على رسائل غرام توجهها المعجبات الى « بطلهن » فيحددن فيها عناوينهن ، ويضربن مواعيد اللقاء ، واقصى امانيهن الا يقعن على خيبة واعراض .

تتتابع مشاهد الصراع والمتفرجون في مثل الغيبوبة ، يمسكون الانفاس عن ان تتدافع عند اشتداد الخطر على المصارع ، ويهللون تهليل الظفر ساعة يوفق للقيام بحركة فنية معجبة . والبيئة كلها بيئة احساس مرهف الى ارفع درجات الارهاف ، وبيئة انفعال اهتيج الى

غاية ما يمكن ان تبلغه طبيعة الاهتياج . والمتفرجون يتلذذون بالمشهد، مشهد اصطراع الحياة والموت ، مشهد توقع حدوث الكارثة ، تلذذهم بامتع ما يستهوي النفوس وتستسيغه .

*

ان انسَ لا انسَ كيف ان الثور ، في بعض اشواط الصراع ، قد نطح الطوريرو نطحة محكمة التسديد فسقط على الارض شلواً تعبث الحياة في محاولة انتزاعه من انياب الموت . وان انسَ لا انسَ كيف ان الجمهورلم يكترث للضحية تعانق التراب قدر اكتراثه للمطالبة بانزال طوريرو جديد ومواصلة الصراع .

وان انسَ لا انسَ كيف كانت الجماهير تأبى على الطوريرو تعجيل القضاء على الثور رغبة منها في الاستمتاع طويلاً وطويلاً جداً برؤية الخطر يتفاقم . وان انسَ لا انسَ كيف كانت تلك الجماهير تعبر عن فكرتها ورأيها وشعورها في سكرتها الجنونية الهوجاء ، وكيف كان المصارع يضطر الى مجاراتها مجاراة تقف به عند شفا الهاوية الرهيبة .

وان انسَ لا انسَ كيف تقززت نفسي وخانتني اعصابي ازاء مشاهد الصراع وكلها مما يحطّم الاعصاب ويبعث في النفس ردّات الاستهجان والتقزز .

لن انسى ذلك .

ولن انسى كفر الانسان باخيه الانسان ، اشباعاً لشهوة وارضاء لهوى !

فجر الملحمة

ثم سارت مراكبهم على شواطئ افريقيا حتى بلغت اسبانيا .
واتوا ترشيش فاستبدلوا بزيتهم وغيره مقداراً عظيماً من الفضة
حتى لم تسع سفنهم . فصنعوا ادواتهم وآنيتهم ، حتى اناجر
سفنهم من الفضة

[ارسطو]

الولايات المتحدة ترزح لاهثة ، معنّاة ، تحت وطأة الحر
المذيب ،
وميزان « فهرنهايت » يسجل الدرجة المئة في سلم اشتداد
القيظ ،
والاحصاء الاميركي - ويا له من احصاء دقيق جامع ! - يعلن
انها المرة الاولى بعد عام ١٩٣٦ والثانية في مدار اربعين سنة تبلغ فيها

الحرارة ذينك الارتفاع والضغط العاليين ،

والانباء تقول ان مئة وسبعين شخصاً ذهبوا ضحايا الحر ...

تلك كانت حالة « المناخ » في الولايات المتحدة يوم كان علينا ان نزور جالياتنا فيها .

وحول هذه النقطة راجت احاديث كثيرة بيننا وبين جمهور مودعينا في مطـار مكسيكو . وكان بعض الاصدقاء قد تمنوا علينا ارجاء موعد السفر بضعة ايام تعـلّة وارتقاباً . بيد ان ثقتنا بقداسة رسالتنا واتكالنا على عطف التوفيق العادل كانا يوحيان الينا بالارتياح والاطمئنان ويهيبان بنا الى المضي في تنفيذ ما رُسم من خطة وحـدد من منهج : ان يدنا بيد الله وعناية السماء لن تتخلى عنا .

شيعتنا جالية مكسيكو تشييع الحب والرجاء ، وابت الا ان تكون باجمعها ممثلة في ساعة الوداع ، فحملتنا من عبء الامتنان وعرفان الجميل ما يخفّ دونه عبئها ساعة اللقاء والاستقبال .

وفي غمرة من ثورة الحنين وانفلات زفرات الحر قامت بنـا الطائرة وقبلتها « هاوستن » في « تكساس » ، حيث كان علينا ان نقضي ليلة واحدة .

ونزلنا في هاوستن بعد طيران دام اربع ساعات ، فخيل الينا اننا بين شدقي الجحيم : فمن الفضاء تهل سحب من نار خفية ، ومن الارض تتصاعد ابخرة لافحة كوهج الجمر . وكل ما حولنا من ضياء وهواء يشعر باننا في اتون جنت شياطينه فاسترسلت في طرح الوقود بدون تقنين ولا حساب .

وفي منتصف الساعة السابعة من صباح اليوم التالي استأنفنا السفر الى نيويورك فبلغناها بعد طيران ست ساعات وتوقف نحو من ساعة في مطاري « نيواورليان » و « اتلنتا » .

هبطت بنا الطائرة في مطار « نيوجرسي » فاذا نحن في عهدة جمهرة كريمة من نزالة نيويورك ، على رأسها الاستاذ سلوم مكرزل صاحب « الهدى » الغراء ولفيف من قادة « النهضة اللبنانية » ، واذا نحن امام الصفحة الاولى من سفر الاغتراب اللبناني ، تلك الصفحة التي كان عنوانها عرقاً ودماً فاصبح بعد تسعين عاماً مجداً مشرقاً وتاجاً مورقاً .

* * *

كان « انطونيوس البشعلاني » ، من « صليما » في المتن ، اول مغترب لبناني نزل بوسطن عام ١٨٥٤ ، فكان بدء ملحمة قلما عرفت الانسانية نظيراً لها بين شتى ملاحمها النيّرة الخيّرة .

ويقول الدكتور فيليب حتي ، في ابحاث له عن الهجرة اللبنانية ، ان اللبنانيين اكتشفوا اميركا بين ١٨٧٠ و ١٨٧٩ ، وكان ابناء زحله مصدر ازدياد الهجرة بين ١٨٨٠ و١٨٨٩ ، وعندما اقيم معرض شيكاغو سنة ١٨٩٣ فتحت امام مغتربينا آفاق جديدة . وعام ١٩٠٦ اقيم معرض « سان لويس » وافسح للمغتربين في ان ينتشروا في الولايات الغربية .

وتوالى انتشارهم في طول البلاد وعرضها ، فلم تخلُ منهم ولاية ولا مدينة لها من السكان ما يزيد عن الخمسة آلاف نسمة ، وفي بعض

تقارير « لجنة المهاجرة الاميركية » (المجلد ١ الصفحة ١٠٦ ـ ١٠٩)
ان اللبنانيين الذين استجوبوا لدى دخولهم الولايات المتحدة ، بين
١٨٩٩ و ١٩١٠ ، عن الجهة التي يقصدون اليها ذكروا كلاً من الولايات
الثماني والاربعين ، ومنهم من اعلن انه متوجه الى « ألاسكا »
و « بورتوريكو » وجزائر « هوائي » التابعة للولايات المتحدة .

اما عدد ابناء الجاليات اللبنانية في الولايات المتحدة فمن الصعب
ضبطه للاعتبارات نفسها التي طالما اشرنا اليها في مناسبات مماثلة .
ويضاف الى ذلك ان الدوائر الاميركية ذات العلاقة والتخصص
درجت حيناً على تسجيل اللبنانيين بوصفهم « اسيويين واتراكاً » ،
وحيناً آخر على قيدهم في سجلات « السوريين » .

وقد ذكرت مجلة (Litearary Digest) ـ وهي مجلة مأثور عنها
رصانة الكلمة ـ في عددها بتاريخ ايار ١٩١٩ ان الجاليات اللبنانية
والسورية في الولايات المتحدة تبلغ الاربعمائة الف نسمة عداً . ومتى
لحظنا ان السواد الاعظم من المغتربين المسجلين « سوريين » انما هم
لبنانيون ، ومتى ادركنا ان الهجرة اللبنانية الى اميركا الشمالية قد
نشطت كثيراً بعد عام ١٩١٩ ، ومتى علمنا ان المجندين اللبنانيين تحت
راية الخطوط والنجوم كانوا في الحرب العالمية الاولى نحواً من اثني
عشر الف جندي وفي الحرب العالمية الثانية نيفاً وخمسين الفاً ، ومتى
عرفنا ان المتحدرين يزداد عددهم سنوياً ازدياداً كبيراً ... متى تنبهنا
الى ذلك كله وسعنا القول ان المغتربين اللبنانيين في الولايات المتحدة
يجاوزون الاربعمائة الف نسمة بين اجيال قديمة وجديدة ومتحدرة .

وانك لتجد بين صفوف هذه النزالة الكبيرة من احتل مكانة مرموقة في دنيا القلم والسياسة والادارة ، ومن يتعاطى اعمال الزراعة والتجارة والشغل في المصانع . اما صناعات مغتربي الولايات المتحدة فكلها من « الوزن الخفيف » ، اذا جاز التعبير . ولا شك في ان لطبيعة المحيط الذي يعيشون فيه اثراً رئيسياً في ضعف صناعاتهم . فاقتحام هذا الميدان في اميركا الشمالية اصعب من اقتحامه في ما عداها من ديار الاغتراب ، لعوامل مردّها الى الوسط اكثر منها الى المجهود اللبناني نفسه .

وقد كان لمغتربينا في الولايات المتحدة فضل كبير في خلق اندلس جديدة لادب العربية امتازت ثمرات نتاجها نوعاً وكمية ، فكانت في بعض منعطفات التاريخ المعاصر مدارس ادبية غنية وقوية ساعدت على التطوير والتوجيه في مسالك والى اهداف هي اليوم ، كما كانت بالامس ، من احب المسالك وارفع الاهداف .

وذكر النهضة الادبية يستتبع ذكر الحركة الصحفية المباركة وقد كان لها هناك عشرات الجرائد والمجلات وفي مقدمتها « الهدى » حاملة الخمسين عاماً على المنكبين ، زاخرة بجهاد القيادة الوطنية وآي الاشعاع الفكري اللبناني عبر البحار .

وليس ادل على شغف اللبناني المغترب هناك بالتحصيل والثقافة والادب من تقرير « للجنة المهاجرة الاميركية » درست فيه احوال اولاد المغتربين وابناء البلاد ممن لم يجاوزوا السادسة عشرة من العمر . وقد ركزت درسها على سبع مدن هي : نيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا

وبوسطن وكليفلند وبفالو وملواكي ، فجاء فيه ان ٢ ، ٢ في المئة من الاولاد اللبنانيين في العمل و ٣ ، ٣ في البيت ، و ٥ ، ٩٤ في المدرسة ، بينما المعدل من المهاجرين الآخرين انفسهم كما يلي : ١ ، ٧ في المئة في العمل ، و ٦ ، ٨ في البيت ، و ٣ ، ٨٤ في المدرسة .

وللنزالة جمعياتها الوطنية والخيرية والادبية من اقليمية ضيقة الحدود تقصر نشاطها على ابناء القرية الواحدة او المدينة الواحدة من قرى لبنان ومدنه ، وعامة تتسع اهدافها وخطوط نشاطها الى ان تلمّ بكل الوطن ومصالحه ومصايره . وفي طليعة هذه الجمعيات « النهضة اللبنانية » ، وقد انشأها المغفور له نعوم مكرزل ورفاق له في ١٩ آب ١٩١١ موقوفه الجهد والنضال على الدفاع عن لبنان والسعي الى النهوض به ، فعاشت وما زالت في تقدم مطرد وتوسع مستمر وعلى رأسها اليوم الاستاذ سلوم مكرزل .

وتحيي النهضة سنوياً « المهرجان اللبناني » وقد احتفلت به للمرة الاولى عام ١٩٢٩ فلقي النجـاح والاستحسان والتأييد . والمهرجان عبارة عن ايام ثلاثة يجتمع فيها الالوف من اللبنانيين المتقاطرين من مختلف الانحاء حول لبنان وطنية وتقليداً وعادة ، في بيئة تذكّر الحضور بوطن الآباء والجدود ، موقظة في صدورهم الوعي والشوق والتعلق بالتربة التي لا تنسى .

وعلى اخلاص الجالية الشديد والوفي للولايات المتحدة وبرّها بالوطن الثاني فانها ما برحت تنطوي للبنان على اصدق عواطف الوفاء والولاء ، وتنظر الى محاولي غمط فضلها وهضم حقها نظرتها الى اعداء

الوطن اعينهم . ولو تسنى للمتنكرين لحقوق المغتربين في لبنـان ان يسمعوا بعض ما تجريه الديمقراطية على السنتها لايقنوا ان اللعبة التي يلعبون خطرة كل الخطر ، ولـكانوا يعدلون عن نهجهم الشاذ المستهجن .

* * *

يتمتع مغتربو لبنان في الولايات المتحدة بمنزلة هي من دواعي الاعتزاز والتباهي . وقد جمع الدكتور فيليب حتي بعضاً من شهادات الحق الدالة على رفعة تلك المنزلة نجتزىء بيسير منها لعلها ترشد « معشر المقيمين » الى بعض حقيقة المغتربين .

يقول الاستاذ « ملر » ، احد المدرسين في جامعة برنستون ، في مؤلفه (A Study of the Syrian Population of Greater) :
« ليس من يفضل اللبناني في محبته النظام ومحافظته على القانون . ولقد توليت بنفسي فحص تقارير المحاكم والشرطة فوجدتها تشهد ان ليس بين شعوب نيويورك اي شعب مسالم كالعنصر اللبناني » .

وتقول « مسز هوطن » ــ وهي اديبة ومفكرة معروفة ــ : « استشهدت القضاة والحكام في كل المدن التي يكثر فيها اللبنانيون فوجدتهم صوتاً حياً ناطقاً بتفوقهم على سائر شعوب الارض بالسكينة والمحافظة على شرائع البلاد التي يقيمون فيها » .

وكتب الاستاذ « وليام كول » رسالة عن المغتربين نشرها « المجلس التهذيبي » في ولاية « ماستشوستش » قال فيها : « اللبنانيون شعب على جانب عظيم من الذكاء والتدين ومضاء العزيمة . وهم يفاخرون

بجنسيتهم ، ويقبلون على التهذيب ، ويخلصون لمعالم العمران في البلاد .
ومن فضائلهم لطف المعاشرة واكرام الضيف والاعتدال » .

*

في الولايات المتحدة ثماني عشرة بلدة تحمل اسم « لبنان » .
وفيها قوى وامجاد لبنانية تحمل على الشموخ والاعتداد .
غير ان اجمل ما لنا فيها هذه الشهادات ومثيلاتها ، وهي كثيرة.
انها شموع وضاءة في هيكل رسالتنا النبيلة .
انها اقرار بكوننا ، في ركب الانسانية والحضارة ، رايات حب وطلائع خير .
انها من لبنان بعض حقيقته واشعاعه !



وثبة الجبّار

اني ادعوك ، يا الهي ، الا تجعلني اصدر حكماً على احد
قبل ان اكون قد انتعلت حذاءه خمسة عشر يوماً

[مثل هندي]

« ... في العالم اليوم شعبان عظيمان : الروس والاميركيون .
خرج احدهما من مشارق الارض واطلّ الثاني من اقصى مغاربها .
كلاهما شبّ وتكوّن وراء حجب من الصمت والظلام . وبينما كانت
الانظار متجهة الى غيرهما طلعا على الامم ، وشقّ كل منهما لنفسه
طريقاً الى المقام الاول منها . وهكذا علم النـاس في وقت واحد
بوجودهما وبعظمتها .

لقد بلغت الشعوب الاخرى اقصى الحدود التي رسمتها للنشاط
والتبسّط ، فلم يبقَ لها من طمع سوى الاحتفاظ بما وضعت يدهـا
عليه . اما هما فما زالا في عزّ النمو وفي بدء عهد الاقدام . جميع الشعوب

اعياها السير فتوقفت ، واثقلها النهم فغدت بطيئة الحركة ، وهما اسرعا الخطى في طريقها الى مستقبل لا يدرك الطرف مداه ولا يتبين العقل حدوده.

... لقد اختلفت مصادر الشعبين وتباينت سبلها واساليبها ، ولكن مشيئة الله ساوت بينها بما كتبته لكل منها ان يبسط سيادته يوماً على نصف العالم » .

هذه فقرات من كتاب « الديمقراطية في اميركا » لمؤلفه « الكسي دي توكفيل [1] » الاديب الفرنسي المعروف ، وقد نقلها الى العربية اميل خوري في العدد ٢١٩٠٤ من جريده « الاهرام » .

والكتاب المقتطعة منه هذه الفقرات ليس من وضع اليوم ، ولا من وضع الامس القريب . ان له من العمر مئة وست عشرة سنة .

يعجب القارىء ، وهو يستعيد هذه الفقرات ، بنفاذ بصيرة ذلك المفكر وصحة استنتاجه البعيد وهو على مرحلة قرن وبعض القرن من الحاضر. لقد كان موفقاً الى مدى عريق ، عميق ، في دقة الاستقراء وحجة النظرة، في كل ما له علاقة بالاميركين، اي ابناء الولايات المتحدة، وقد طغى تعريفهم « بالاميركين » على من عداهم من شعوب اميركا الشمالية والوسطى والجنوبية .

يطلّ هذا الشعب الجبار على التاريخ حاملاً اليه سخاء مجهود مئة وخمسين مليوناً من البشر ، يدأبون في الجد والكد ويتفوقون في الاثر والنتاج ، فوق رقعة من الارض تناهز وتوابعها تسعة ملايين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة، وقد زخرت بخصب وتنوع

(١) من الباحثين من ينسب هذا الكتاب الى الناشر وعضو المجمع العلمي الفرنسي « شارل ـ هنري دي توكفيل »

في الموارد والامكانات هما ـ ولا نزاع ـ بين اسخى وازهى واقوى واجدى ما تيسره ارض لقوم من الاقوام . وليس هذا فحسب، بل ان هذا التجاوب السمح التلبية بين مرافق طبيعية غناها كغنى ارقام النجوم وجهود بشرية حيويتها من اعصاب الطموح لا يحد والمضاء لا يقف بوجهه سد ، ان هذا التجاوب بين العطاء والاخذ ، بين جود البذل وحسن القبول ، بين قيام المادة واجادة الافادة منها ، يجسّم عظمة تلك الموارد والامكانات ، ويظهرها واقعاً قريب الشبه باساطير الخيال .

قد يؤخذ على الاميركيين كونهم ليسوا بالامة الموحدة العرق توحيداً قديم العهد والنسب ، بيد ان من يرى كيف صُهرت الجماعات في الولايات المتحدة في وحدة الاماني والآمال وفي وحدة الانصباب على العمل الخلّاق لا يسعه الا ان يكبر في الاميركيين شباب جهادهم وفتوّة انطلاقهم ، فقد صدقت فيهم كلمة « دي توكفيل » : « انهم يسرعون الخطى في طريقهم الى مستقبل لا يدرك الطرف مداه ولا يتبين العقل حدوده » ...

سِرْ حيث شئت في هذه الولايات الطلقة الآفاق ، المنبسطة الرحاب ، في المدن والقرى ، في السهول والجبال ، على الشواطىء وفي الغابات ، في اقاليم الحر ومناطق القر ، في عوالم الصناعة ودنيوات الزراعة ، فانك كيفما اتجهت وحيثما حللت تجد ثروة الارض يوجهها عقل الانسان وساعده ، تلك تصدر عن معين لا ينضب ، وهذا يغرف بنهم واستزادة . انك لتجد عمراناً حياً ، شاملاً ، كاملاً ، وقد طبع

البلاد كلها من اقصاها الى اقصاها بطابع الاشراق والتقدم والازدهار، ناهيك بالوفرة والبحبوحة والرخاء. وانك لتجد بنوع خاص ان ما استنزف من عطاء الطبيعة ورفدها ليس سوى نزر يسير مما فيها من قوى مخزونة ومصادر حافلة.

وابرز ما في مظاهر العمران ومجاليه وجه الآلة ويدها ولسانها. ولو كان للآلة ان تُعبد لكانت نيويورك - بل الولايات المتحدة - هيكلاً لها كبيراً، ولكان ابناء نيويورك - بل ابناء الولايات المتحدة - كهّاناً يسبّحون باسمها ويحمدون.

ففي هذه البلاد الراكضة وراء مطامحها ومطامعها باقدام من صواريخ منفلتة، والمجسّدة الاحلام والاوهام حقائق ووقائع في متناول الحواس، والمحققة اغرب واعجب ما يمكن ان يرقى اليه تصور او تخيل، والقادرة كل مقترح او فكرة يعرضان عليها، وان جنوناً وهوساً... في هذه البلاد تكاد الآلة ان تكون كل شيء. فهي التي تبسّط وتيسّر اسباب المعيشة ووسائلها ومقتضياتها، وهي التي ذللت لخدمة الانسان تذليل اللين والتلبية، وهي التي تغني كثيراً من الرؤوس عن تحريك قواها المفكرة، وهي التي تقوم باعمال تعجز عن القيام بها عقول فئات كبيرة من الذين لا يزالون في مهود طفولة العقل او في البلدان المتأخرة.

ويبدو اثر الآلة في جليل الاعمال وعظيمها مثله في تافهها وصغيرها: فانك لتراه في المنشآت الهائلة والخطيرة كما تراه مثلاً عند حالب البقرة وماسح الاحذية وغاسل الثياب. الآلة تجيبك الى طلبك

عند الشراء، وتسرع الى اسماعك المعزوفة الموسيقية التي تفضل، وتحسب ما لك وما عليك بضبط قد لا يكون ميزة الكثيرين من حملة الادمغة الحيّة.

وطابع الآلة الطاغي على كل شيء، والمسيطر على نواحي الحياة الاميركية، هو اول وآخر ما يستهوي الزائر الغريب ويستأثر بالتفاته وعنايته.

بهذا شعرت يوم زرت الولايات المتحدة للمرة الاولى في صيف ١٩٤٨، وبهذا شعرت يوم زرتها للمرة الثانية في خريف ١٩٥٠. وان كان من جديدفي الامر فانما هو جديد يشير الى تقدم الآلة واستبدادها وارهاف حسها واحتمال تطورها، بين ليلة وضحاها، من مادة باردة، خاوية، الى مخلوق من نوع جديد قد تؤاتيه يوماً حرارة اللحم والدم وعناصرهما الفاعلة والمميّزة في الكيان الآدمي نفسه.

وان يكن الباحث في حاجة الى دليل فدونه نيويورك، هذا المعرض الهائل الرهيب للمظهر الآلي في القرن العشرين. ففي هذه المدينة الجيّاشة بتسعة ملايين من السكان، في هذه المدينة التي ضاقت بها الحدود شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فانتصبت صعداً في الفضاء وغارت نزولاً في الاعماق، في هذه المدينة الممثلة جبروت الجهد البشري المادي اروع تمثيل، في هذه المدينة المتحركة حركة الحدّة واللهفة والشوق، في هذه المدينة المسرعة بحثاً وعدواً تدفع نفسها بشدة دفع النشاط والوثوب، في هذه المدينة دليل، واي دليل! على ما حققته الآلة في مختلف الميادين. وليس هذا بوقف على المدينة الكبرى وحدها، فكل

مدينة ، بل كل قرية ، بل كل مزرعة وبقعة في الولايات المتحدة هي نيويورك الآلة ، الآلة السيدة المطلقة والفاتنة المبدعة !

*

يوم باع الهنود الحمر من الاوربيين جزيرة « مانهاتن » ـ وهي قلب نيويورك واهم اجزائها الخمسة الرئيسية ـ بما يساوي اربعة وعشرين دولاراً لم يكونوا يدرون ان هذه الرقعة من الارض سيطلع عليها صباح تكون فيه هذه المدينة الضخمة والغنية الزاخرة بالعجائب والغرائب .

وحسبنا ان نذكر من « مانهاتن » ومدهشاتها الكثيرة كبرى ناطحات السحاب : « الامباير ستيت » ، وهي اعلى بناء رفعه الانسان على الارض منذ كان التاريخ ، لنعطي القارىء احدى صور الروعة والعمران :

ترتفع « الامباير ستيت » في الشارع ٣٤ بعلو ١٢٥٠ قدماً (علو برج ايفل : ٩٨٤ قدماً ، وتمثال واشنطن ٥٥٥ قدماً والاهرام ٤٨٠ قدماً ، وبرج بيزا المائل ١٧٩ قدماً) . وهي مؤلفة من طابقين تحت الارض ومئة وطابقين فوق الارض وفيها ٦٧ مصعداً منها ٦ مصاعد للبضائع والسيارات ـ اجل السيارات التي ترفع الى الطابق الثمانين في اقل من دقيقة واحدة ، وفيها ٦٤٠٠ نافذة وعدد من المتاجر والمطاعم والمكاتب لا يحصى . وفيها مكتبان للبرق والبريد ، ومركز شرطة ، وفرقة مطافىء ، وتتسع لاقامة ثمانين الفاً من السكان . الا ان ثمة قانوناً اميركياً يحظّر السكن في العمارات الخاصة بالمكاتب والاعمال . وفي

اعلاها مرصد ومطعم ومتجر ومشرب .

وقد استغرق بناء « الامباير ستيت » عامين لا غير ، وفرغ منه سنة ١٩٣٢ ، وانفق عليه ٣٣ مليوناً من الدولارات ، مع العلم ان الاسعار كانت يومذاك في منتهى الرخص والتدني . وقد زار ناطحة السحاب حتى اليوم نحو الاحد عشر مليوناً من الزوار بينهم ملوك وامراء وصعاليك وفقراء : فبدل الزيارة دولار واحد .

ويشرف على ادارتها مدير يعمل تحت امرته ٦٥٠ موظفاً .

وحدث ان اصطدمت احدى الطائرات ببعض الطوابق العليا لثلاثة اعوام خلت فلم يصب الجدار الذي وقع عليه الاصطدام باي عطل او ضرر بينما تحطمت الطائرة بمن وما فيها وعليها .

يقف المتفرج في الطابق الثاني بعد المئة ويرسل النظر الى ما دونه فيرى المدينة القائمة على جزر وقد ضحت تقاطيعها وتقلص المدافعون في مسالكها ودروبها ، ولا يسعه – وهو على ذلك العلو الشاهق – الا ان يحس بكونه في واحة مريحة وسط صحراء الضجيج والعجيج والهدير والزفير والصلصلة والقعقعة ، فينخطف الى حين انخطافاً دافىء الغبطة في الارض التي قلما تجيز للانسان ان يحس بوجوده وكيانه ...

وكم في نيويورك من معجزات ليست دون « الامباير ستيت » مهابة وعمق تأثير : « فجسر بروكلين » الذي كان لعشرين ، او ثلاثين من السنين التي سلفت ، احدى عجائب الدنيا السبع اصبح قزماً صغيراً ازاء « جسر واشنطن » العملاق الجديد . والنفق الخاص بالسيارات ،

ذو الستة كيلومترات طولاً والثلاثين متراً عرضاً والذي يربط ما بين نيويورك وبروكلين ، وقد انفق على انشائه ٨٦ مليوناً من الدولارات، من مفاخر الهندسة العالمية لا الاميركية فحسب . و« راديو سيتي » اعظم واكبر مسرح في العالم والمتسع لستة الاف شخص يجمع بين الروعتين : روعة العمار وروعة العرض ... والحي المالي « وول ستريت » ومدينة روكفلر ، وجريدة « النيويورك تايمس » وجامعة كولومبيا بطلابها المتراوح عددهم بين ٣٥ و٤٠ الفاً وفندق « ولدورف استوريا » ذو الالفين من الغرف والثلاثمائة جناح والذي يوازي عدد موظفيه والعاملين فيه عدد موظفي دولة صغيرة ... وسواها وسواها من المكتبات والمستشفيات ومؤسسات العلم والصناعة والتجارة واللهو ... هذه كلها تشهد من بعيد وقريب بأثر الآلة وتضفي على نيويورك وجهاً لا يجد القلم سبيلاً الى وصفه عن غير طريق افعل التفضيل المطلق من الاضخم الى الاكبر فالاعظم فالاوسع فالاكثر وما اليها ...

***

طرائق المعيشة الاميركية وعاداتها وتقاليدها مبسوطة بسطاً افقياً لا كبير عمق ولا كبير علو فيها . والى هنا مرد سهولة الكشف عنها واستجلاء ما خفي وما ظهر منها .

فالاميركي صريح وصادق على براءة وسذاجة قد تؤولان بكونهما من الاسرار احياناً وما هما منها في شيء . ولا يهمّ الاميركي ، غنياً كان او معوزاً، من فنون الحياة واساليبها الا ان توفق بين المتعة والفائدة،

في معزل عن اعراض البذخ والبطر والتعقيد .

ومسلاة الاميركي الفضلى الكرة ، سواء أكانت للقدم ام لليد او لاي ضرب آخر من ضروب لعبها وتشعباته . وقد يتفق احياناً ان تهتز الولايات المتحدة وتشغل باحدى لعب الكرة اضعاف اهتزازها واشتغالها باي موضوع آخر، اياً كانت خطورته واهميته . وقد حدث ان عطل «الكونغرس» جلساته غير مرة في سبيل لعبة «البايس بول».

اما ألهية الاميركي فواحدة من اثنتين : الخمرة والمرأة ، وقد تُقدّم الاولى على الثانية في كثير من البيئات والفئات .

والمرأة الاميركية صنو الرجل في ميادين الحرية والتساوي. وهي تلعب دورها في الحياة بدون غش ولا نفاق ولا اي تظاهر كاذب، فتحيا انساناً له حقه واستحقاقه وطبيعته الصافية لا انساناً مزدوج الشخصية، مزدوج التصرف ، مزدوج المقام، يأخذ من الازدواج ما يفيده ساعة يشاء ويعدل عن استخدام ما ليس فيه ارضاء لأنانيته ساعة يشاء .

وللاميركي ذوق خاص بالمأكل ، ومطعمه فريد في بابه . وكثيراً ما يستهجن اللبناني وغير اللبناني مثلاً ان يرى المربيات الحلوة تؤكل مع بعض اصناف اللحوم، او ان تُقدم له «المخللات» وقد اضيف اليها السكر فصارت مسيخة ، ذات طعم حائر بين مذاق الخل ومذاق السكر. ويتناول الاميركي كثيراً من القهوة الخفيفة، وهو يتناولها باثناء تناول وجبة الطعام لا في نهايتها كما هي العادة عندنا .

* * *

عاشت الولايات المتحدة الى بضع عشرة سنة خلت عيشة الزاهد

في ما وراء حدوده والمنقطع الى ما في داخل داره . الا انها ما كادت تكتوي بنيران الحرب الاخيرة حتى رأت وادركت وآمنت بان الزمن قد تبدل وتحول ، وبان مبدأ العزلة والاعتزال مبدأ لايصلح للجيل .

وزادتها خبرة الحرب وتجاربها يقيناً في الرأي ورغبة في الانفتاح. وراعها ان ينبري لها من الشرق منافس شديد المراس ، قد يكون له ما لها من رأس مال وقد يكون في نياته ما فيها من خفايا واسرار .

وكان المعسكران ، كانت الكتلتان ، كان « الشعبان العظيمان المطلاّن من وراء حجب الصمت والظلام » .

وطدت الولايات المتحدة مركزها في القارة الاميركية كلها توطيد الوفاء والتضامن والتكافل . فما من دولة في تلك القارة ، على وجه التقريب ، الا ربطت مصيرها بمصير قيادة واشنطن .

ثم عمد الاميركيون الى تأليب قوى مناصرة ومؤيّدة في القارات الثلاث الباقية . فقام لهم في اوربا وافريقيا وآسيا اعوان وانصار .

وفي زحمة الحوادث والاحداث تقضّ على بني البشر المضاجع ، في عاصفة توتر الاعصاب هنا وهناك وفي كل افق على مشارفه للسياسة ظفر وناب ، وفي هبّات الوجوم ينقبض لها صدر البشرية من غد مريب ... في هذه البيئة القلقة الكالحة ، سل ايّاً كان من الاميركيين : « ما الهدف ترمون اليه من تعبئة القوى والجهود » ؟ يجبك جواب مواطنهم « توماس باين » المعروف : « ان مصلحتنا صورة لمصلحة الانسانية » .

واعتقادي اننا لو وجهنا السؤال نفسه الى اي كان من ابناء

الانسانية لما اختلف جوابه عن جواب «توماس باين» واخوانه. فالكل يغار على الانسانية، والكل ينشد سلامتها، والكل حريص على مصلحتها.

وما همّ الانسانية في الخضخضة العنيفة تقيمها وتقعدها الا ان تسلم ويسلم لها وجهها الخيّر. أتراها على الطريق الى الامام ام ان كلاليب الأثرة وحب التسلط تشد بها الى الوراء ؟

الجواب في فم الغد، وربما كان هذا الغد اقرب الينا من اي غد آخر ! ...



مصنع الحرب

اذا عدنا الى التاريخ وجدنا ان السلم لم يكن الا طارئاً فى حياة الامم . فمن سنة ١٤٩٤ قبل المسيح الى سنة ١٩٤٦ ، اى فى ٣٤٤٠ سنة ، كان عدد سنى الحرب الموضعية والعامة ٣١٧٢ سنة ، ولم يستتب السلام الا فى ٢٦٨ متقطعة

[اميل الخوري – الاهرام ، النشرة : ٢١٨٧٢]

قال لي صاحبي : « ما رأيك في زيارة نقوم بها هذا النهار الى مقر منظمة الامم المتحدة في « لايك ساكسيس » ؟

فوقع العرض في نفسي وقع القبول والارتياح .

وسرعان ما لفنا ذلك التيار الكبير يجرف من نيويورك ، كل صباح ، عديد السيارات المتدافعة الى القرية الصغيرة ،وقد كانت نكرة على مخطط الولايات المتحدة نفسه ، ثم استحالت فجأة علماً تضج شهرته

في جنبات الارض كلها جمعاء ، وتشخص اليه انظار البشر وفيها كثير من التشوف والتلهف، وكثير من آثار الهبات الباردة والهبات الساخنة.

«لايك ساكسيس» و «فلوشينغ ميدوز» اسمان يلازمان اعمال منظمة الامم المتحدة في دوراتها المنعقدة في الولايات المتحدة. اما الاولى فمجتمع المجالس واللجان المتفرعة عن المنظمة، واما الثانية فمعقد جلسات جمعية المنظمة العامة. والندوة التي تعقد فيها هذه الجلسات في «فلوشينغ ميدوز» من بقايا ما شيد لمعرض نيويورك العالمي سنة ١٩٣٨ .

وتبعد لايك ساكسيس عن نيويورك مسير ساعة بالسيارة اما فلوشينغ ميدوز فلا تبعد سوى مسير اربعين من الدقائق . وسيظل هذان المركزان مسرحاً لمنظمة الامم المتحدة الى ان يُفرغ من انشاء ناطحة السحاب الكبيرة التي تشيد لها في نيويورك ، وقد بني منها جناح اول انتقلت اليه بعض دوائر المنظمة ودواوينها . ولا يتوقع ان تنجز اشغال البناء والزخرفة والتأثيث في الاجنحة الباقية قبل نهاية عام ١٩٥١ ... هذا اذا لم يطرؤ ما ليس في حساب او حسبان فيصبح مصير الدار الجديدة كمصير قصر جمعية الامم في جنيف ، وقد كان تاريخ الفروغ من تشييده واعداده نذيراً بتفرق شمل الجمعية وبخروجها من دنيا الحياة الى دنيا الموت ...

لا يكاد الزائر يجتاز عتبة الباب الرئيسي ، في مقر منظمة الامم المتحدة ، حتى يشعر بانه في بابل حقيقية للقرن العشرين ، تحشد في ساحاتها سائر الوان العرق البشري، وتلغو وتلغط بمعظم لغات الشعوب: فالسلالات من بيضاء الى صفراء فسوداء فحائرة بين هذه وهاتيك وتلك

تتجاور وتتخالط ، وتتقابل وتتدابر، وتتقارب وتتباعد، عارضة لوحة من الفسيفساء هي ادق واوضح واكمل ما يمكن ان يرسم للعين عن الاجناس البشرية وسحنها. والالسنة تنطلق وتتلجلج مفرغة في الآذان معزوفة متنوعة النبرات،متعددة اللهجات، جافاها التوافق والانسجام.

ويشعر الزائر بان عمل التعريف والتقريب والدمج والمزج واحلال التفاهم محل التنافر والتناكر - وقد اتخذته المنظمة شعاراً وهدفاً لها - انما هو محاولة ما زالت طبائع النفوس تقابلها بالفتور والحذر ، والارتياب والازورار ، والتردد وضعف الايمان .

ويشعر بان التساوي في الحقوق يُجهر بدعوته من على المنابر انما هـو مجـرد غرغرة لشغل بعض الحنـاجر وبعض المسامع في بعض المناسبات والحالات . « فالصغار » لا يزالون « صغاراً » كما كان وضعهم منذ كانت ارض ومنذ قام عليها بشر ، و « الكبار » لا يزالون « كباراً » مثلهم في سائر العهود والعصور . وحق القوة ما برح مستبداً بقوة الحق .

ويشعر بان الانتصار للسلام يتغنى به بين تنميق الكلم وتزويق الاخراج انما هو ضرب من دخان التمويه تسير في ظله مخالب الحرب وانيابها وقد شُحذت شحذ الحقد الاسود والرغبة العطشى الى البطش والفتك .

ويشعر بان الآمال التي ترويها انهار الدماء ويسّمدها رماد التخريب تذوي وتيبس وتطير هباء لدن يخيل ان الانهار تلك قد آلت الى شح او نضوب وان الرماد هذا قد فسح في المجال لحجر

يرصف ومدماك يعلو .

ويشعر بان الصراع القائم بين السلم والحرب ، وبين انواع الحروب نفسها انما هو صراع الازل وقد ابتدأ في عهد قايين وهابيل ، ولن تهدأ له رحى الا وقد استمر حتى الابد ، واتى على البشرية بكل من فيها ولها .

*

واتيح لنا ان نشهد فصلاً من مأساة فلسطين المتعاقبة الفصول والمستطيلة الذيول الى ما لا نهاية ولا حد له .

وكان المشهد في موضوع اللاجئين ، موضوع الفرع الذي بات اهم من الاصل ، وموضوع الظلم الذي كان يكون قشعريرة الانسانية لو ان للعدل عيوناً تبصر ، وقلوباً ترثي ، وسواعد تعمل .

وعجبت للقدر العابث كيف يقسو ويلهو : فمقام اسرائيل في المجلس بين لبنان والعراق ، وفقاً لما يوصي به تسلسل الابجدية اللاتينية . ومندوب اليمن ، في زيّه الفريد الغريب ، يشكل شذوذاً قائماً بنفسه بين مندوبي الستين امة وصحافييها وفضولييها المزدحمين هناك . وقد يثير هذا الشذوذ في الزي من اهتمام الرائين والباحثين احياناً اضعاف ما تثير قضية فلسطين ، على ما فيها وفي آفاقها من بواعث اغراء ودوافع استهواء .

ويتكلم المتكلمون في الموضوع ، فيدورون ويلفون ، ثم يلفون ويدورون ، ثم يدورون ويلفون ... ويبقى اللاجئون حيث هم ، وعلى ما هم عليه ، وتبقى الوصمة على جبين مدعي الغيرة على الانسانية

وسلامها وامنها وطمأنينتها ، وتبقى المعضلة عند نقطة البداية ، هذا اذا لم تتأخر عن النقطة هذه بضع خطوات الى الوراء .

ولم احس عمري باذلال الحق واسوداد ضمير الجور مثلي وانا اتقلب في تلك البيئة التي ترى النور محيقاً بها من كل ناحية ، ولكنها تأبى او تجبن عن ان تفتح نافذة واحدة يدخل منها اليها او تتطلع هي نفسها منها اليه .

*

وفي لايك ساكسيس وما حولها تسنى لي ان المس عن كثب خشونة النتائج والعواقب من ترشيح لبنان لمقعد مجلس الامن (١) .

لقد كانت سياستنا في هذه المغامرة من النوع الذي يدخل في باب ما ذهب اليه « موسى بن نصير » ، حين قال : « اذا قهرت قوماً واردت استتباب الامر لنفسك فيهم فول عليهم فشاريهم من كبار الصبيان ، وانشر بينهم حب التبجيل والتدجيل ، وعزز شأنه منهم ، فينصرفون عنك وعن قضاياهم الخطيرة الى المهاترات والمشاحنات » .

لقد كانت سياستنا وخطتنا في هذا الترشيح مستمدة من سياسة الدول العربية وخطتها، وكم في تينك الخطة والسياسة من تفشير وتدجيل وجنوح الى حب التبجيل ، وضياع في المهاترات والمشاحنات !

فالمكانة التي كانت امس للبنان في المدى الدولي الواسع ، عند

---

(١) رُشح لبنان ، بل رشحته جامعة الدول العربية ، لمقعد في مجلس الامن ضد تركيا ، في دورة منظمة الامم المتحدة الخامسة المنعقدة في خريف ١٩٥٠ ثم اضطر الى الانسحاب من الترشيح لمصلحة تركيا .

نشأة الامم المتحدة وفي فجر اطلالنا مرة جديدة على دنيـا الحرية والاستقلال ، آخذة في التضاؤل والتصاغر .

لقد اضاعت معظم هيبتها دولة وانقذ ما يمكن انقاذه منها رجل واحد ، فرد . اما الدولة المضيعة ، الهادرة ، فالدولة اللبنانية بشحمها ولحمها وعجرها وبجرها . واما الرجل المنقذ فابن « بطرام » ، ابن القرية الهاجعة في احضان الـكورة الخضراء : شارل مالك .

يخيل الينا احياناً اننا كنا اعلى مقاماً واعرض جاهاً في نظر العالم يوم كان يعرف عنـا منـا يوم اصبح يعرفنا معرفة القرب والتوثق والاختلاط . فمن سان فرانسيسكو ١٩٤٥ الى لايك سا كسس ١٩٥٠ لم يكن كل مسيرنا على دروب القمم ، ولم نحسن الاحتفاظ بالسمعة التي كان ينبغي ان يستمر عرس زهوها وخصب تربتها .

اما السبب في هذين المآل والمصير فسببان : قسطنا ونصيبنا مما اصاب ويصيب دول الجامعة بعد قيام اسرائيل على حد القوة في وسط وعصر ما زالت القوة ـ اي مطلق قوة ـ فيهما هي الثقل الوحيد يرجح كفات ويشيل كفات ، ووضعنا الداخلي المريب وهو مما لا يستطاع حجزه في قمقم ولا تنويمه تحت مكيال ، بعد اذ مُدّت اليه من الخارج الوف الانوف والعيون والآذان .

وقلما يشعر اللبناني بفداحة الخسارة يتسبب بها المقامرون بحرمات لبنان مثله وهو يتقلب في الاوساط الدولية حيث كانت لنا حال ثم صرنا الى حال .

*

قال لي صاحبي ونحن خارجان من لايك ساكسيس :

« ان مقر منظمة الامم المتحدة هذا كان في الحرب الاخيرة مصنعاً للمواد الكيمائية المستعملة في صناعة الطائرات. وكلما خلا جناح في « المقر ـ المصنع » ـ بانتقال من وما فيه الى دار المنظمة الجديدة في نيويورك ـ عاد الجناح المخلى الى ما كان خاصاً به في المجزرة الرهيبة، فهل يكون من معاني ذلك ان مصنع الحرب آخذ باكتساح مصنع السلم » ؟...

قلت : « انه ، على كل حال ، لنذير شؤم . وقانا الله شر عقباه ، ففي الجو غيوم ، ويا لها من غيوم ! ...



ردت الروح

الى افضل لبنان وصخوره واديره على كل ما رأته عيني في اوروبا

[مرشلوس]

... الى التربة العابقة بشذا الشوق الحنين .

الى مهرجان الاضواء والالحان على حرارة وانسجام .

الى واحة الزهر والسحر والشعر .

الى مغنى الروعة تهيب والوشي يعجب والصبا يطرب .

الى زارع العبقريات على دروب الخير والحق والحب والجمال هداية ونفعاً للاقربين والابعدين .

الى معقل للحرية غالب العنت فغلبه وصارع الموت فصرعه .

الى مالىء الدنيا بنثار من بنيه تخذتهم الانسانية خميرة نبل وبركة .

الى الوطن الذي قلما ينمو ويزهر حب كحبه عن بعد وقرب .

الى لبنان الحقيقة ولا كدر ولا عكر .

الى البيت ـ بيتنا لبنان ـ بكل ما فيه من احلام وآمال ومنى وذكريات ان لم تكن كل الحياة فانها ـ ولا شك ـ خير ما اعطت الحياة .

... لن انسى هذا الحوار العاطفي بيني وبين رفاقي وقد تجلى ، ساعة الرحيل عن الدنيا الجديدة والأوبة الى لبنان ، باعمق ما يجوز لكلمة ان تصدر عنه ، وفي ارق واسمى ما يجوز لشعور ان يرقى اليه .

ساعة العودة ! ما احيلاها مؤذنة بضم الشمل الشتيت ، مبشرة بالرجوع الى الحلقة التي شجانا فراغها ردحاً من الزمن غير قصير .

*

كانت الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين ظهراً عندما قامت بنا الطائرة من مطار « ايدل وايلد » الجديد في نيويورك وقبلتها باريس . وبعد طيران اربع ساعات حطت في « كاندير » من اعمال « الارض الجديدة » . وكانت تباشير الغسق المربدّ وموجات الضباب المتراكضة فوق وجه الارض ودفعات من الامطار متقطعة تضفي على الوسط ، مكاناً وزماناً ، الواناً من العبوس والانقباض .

وعند الساعة الثامنة عشرة والدقيقة الخامسة عشرة عادت الطائرة الى التحليق ، وقد احتواها فضاء رهيب من ليل جامد وسماء باكية وبحر كئيب الصفحة . حتى ان القمر نفسه ، في تلك الساعة ، كان يبدو باهتاً ، شاحباً ، كسراج البخيل ، او كسقيم في خطوه الاول

من طور النقه .

واندفعت الطائرة الى الشرق هاربة من الغرب . وبعد انقضاء احدى عشرة ساعة على مغادرتنا « كانديز » ، في طيران متواصل ، هبطت في مطار « اورلي » في باريس .

*

... ها نحن نغادر باريس في ساعة متأخرة من الليل فنصل الى القاهرة بعد طيران ثماني ساعات لا تزيد دقيقة ولا تنقص دقيقة .

وتقع العين في مطار « الماظه » على وجوه من لبنان وطائرات يزينها علم لبنان فيخفق القلب خفقته للبشرى الحلوة واللقاء الحبيب .

ونترك القاهرة الى بيروت . ونشعر - بالرغم من توالي المشاهد وتعاقب التخوم بسرعة فائقة - بالارض وكأنها قد وقفت عن الدوران وبالطائرة وكأنها قد جمدت في الفضاء . وبين نظرة الى عقربي الساعة ونظرة من كوة الطائرة الى الخارج تفصح اللهفة التواقة وتستشف خيانة الاعصاب .

... واخيراً ، ها هي شواطىء لبنان وجباله وسفوحه ، ها هي ارضنا ودنيانا ، ها هي المهود واللحود وما بين قطبيها من تواريخ الامل والالم ، ها هي كعبتنا المفضلة بين العوالم والمعالم ... وها هي النفس تستسلم الى طمأنينة ناعمة هي العزاء كل العزاء والرجاء كل الرجاء .

لقد شهدت بلداناً كثيرة جمعت من العظمات اجلّها واوفاها : شهدت بلاداً لخصب الثروة فيها امكانات وموارد لا يطولها الخيال

